مصطفى لغتيري

عائشة القديسة

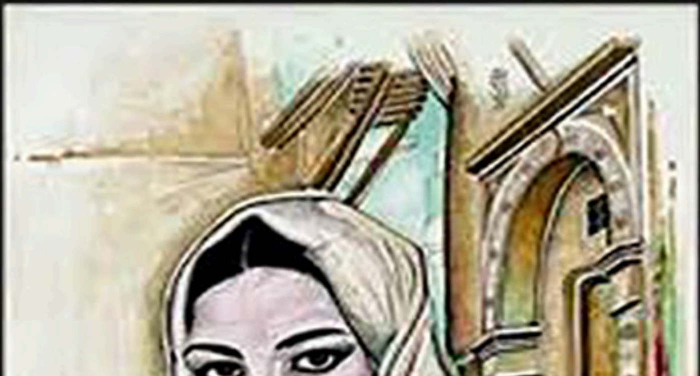

رواية

طبعة ثانية

مصطفى لغتيري

عائشة القديسة

الطبعة الثانية

إصدارات غاليري الأدب

عنوان الكتاب : عائشة القديسة
الـمؤلف : مصطفى لغتيري
الطبعة الثانية : ماي 2016
الـمطبعة : مطبعة دار القرويين ـ الدار البيضاء.
رقم الإيداع القانوني:
ردمك :

© حقوق النشر مـحفوظة

منشورات غاليري الأدب

سلسلة إصدارات غاليري الأدب

إشراف :

مدير عام أروقة غاليري : مصطفى لغتيري

رئيسة غاليري الأدب : السعدية باحدة

لوحة الغلاف :

التصميم والأنفوغرافيا : م. لعروصي

رواية «عائشة القديسة»

أو الوجه الآخر لمجتمع يصارع الانفصام

يتناول الكاتب المغربي مصطفى لغتيري في روايته "عائشة القديسة" أسطورة ظلت تتردد عبر العصور في المجتمع المغربي ليحاول من خلالها إبراز عدة متناقضات وصراعات تهم جوانب عدة من المجتمع المغربي.

ويقول لغتيري إن توظيفه "الخرافة لم يكن سوى وسيلة لبناء عالم قائم بذاته.. بشخصياته وأحداثه وفضاءاته".

وأضاف في مقابلة مع "رويترز" على هامش الدورة الخامسة عشرة لمعرض الكتاب الدولي التي أسدل عليها الستار مساء الأحد "ظاهرة الاستعمار خلقت لنا مجتمعات انفصامية تائهة بين الحداثة والتقليد".

وقال "توظيف الأسطورة هو تعبير عن التناقض والتضارب الذي يعيشه المجتمع المغربي بين عالمين مختلفين".

ويظهر هذا التناقض أكثر عندما يدخل البطل (سعد) في غيبوبة ويبدأ عالـماً مشكلا من فسيفساء عجيبة.. عالـما موازيا في شخوصه وبنياته وتـمثلاته لعالـمه اليومي في قريته الصغيرة لتتنازعه الرغبة في استعادة وعيه وقوة العالـم الجديد التي تجذبه إلـى الهذيان.

ويركز لغتيري في هذه الرواية على بناء منظورين سرديين مختلفين الأول قائم على ضمير الغائب بتوظيفه لسارد يحكي وقائع الأحداث والثاني قائم على ضمير الـمتكلـم عندما يدخل البطل (سعد) في غيبوبة.

و"عائشة القديسة" أو كـما يصطلح عليها الـمغاربة "عايشة قنديشة." يقول بعض الـمؤرخين إنها في الأصل امرأة حقيقية كانت تقاوم الاستعمار البرتغالي على الشواطئ الـمغربية الاطلسية في القرن السادس عشر الـميلادي وكانت امرأة فاتنة تتدثر بلباس أبيض مغربي تقليدي مستعملة جمالها كسلاح للايقاع بالبرتغاليين لتغتالهم بعد ذلك.

لكن عائشة التي كانت رمزاً في تلك الفترة لـمقاومة الاحتلال تحولت عبر العصور إلـى شبح مخيف يلاحق أطياف الرجال والنساء على حد سواء لتتحول من امرأة تاريخية مقاومة إلـى "جنية" تتربص بالبشر، ومن ثم إلـى أسطورة توارثتها أجيال من الـمغاربة.

وتدور الرواية حول أربعة أصدقاء يعيشون في قرية هادئة.. يجمعهم حديث عابر ذات يوم في مقهى ويعتبرون أن وجود "قنديشة" أمراً مفروغا منه، فيحاول البطل سعد وهو معلـم أن يقنعهم أن الأمر لا يعدو أن يكون خرافة، لكن في ممارسته ذات يوم لهوايته الصيد يسقط من دراجته فيفقد وعيه. وفي هذا اللاوعي يدخل سعد في عالـم جديد مليء بالأحداث والصراعات ليشكل عالـماً مستقلا بذاته.

وما يهم لغتيري في توظيفه لأسطورة "قنديشة" هو "كتابة الرواية انطلاقـا من سـرد موضوعي واقعي يركـز على الشخصيات.. بنفس ملحمي يتجلّى في الصراع بين الشخصيات وتبادل الحوار الدرامي بينهم".

وكان لغتيري الذي يعمل في مجال التعليـم وخريج كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء قد أصدر مجموعات قصصية منها "مظلة في قبر" و"شيء من الوجل" وعدد من الروايات، كـما له عدة كتابات ومساهمات في مجلات مغربية وعربية.

وقال إن الصراع في الرواية بين الأسطورة والواقع يفسر ظاهرة الانفصام فـي الـمجتـمع الـمغربي والعربي على الخصوص بحيث ساهمت فيه "عوامل تاريخية واقتصادية واجتـماعية".

ويترك لغتيري المجال في الرواية مفتوحا "كمشروع لرواية جديدة قد تكون جزءا ثانيا لـ"عائشة القديسة" أو رواية مستقلة بذاتها".

فعندما يستعيد سعد "وعيه" وينسى قصة المرأة التي كانت تسيطر عليه في غيبوبته يراها نازلة من حافلة ذات يوم لتتقاذفه الأسئلة.. ويشعر بأن التمزق بين عالمين سيبقى يطارده إلى ما لا نهاية. "يبتعد بخطوات بطيئة يقتلع قدميه من الأرض اقتلاعا مستندا على عكازته التي أضحت جزءا من كيانه"..

من زكية عبد النبي

عن وكالة رويترز للأنباء.

الفصل الأول

حول منضدة، بالقرب من البوابة الكبرى للمقهى، تحلّقت ثلة من الأصدقاء، في جلسة مسائية، دأبوا على عقدها كواجب يومي، فرضته ظروف عملهم بهذه القرية القابعة على مشارف البحر، في نقطة محددة، على الطريق الرابط بين الدار البيضاء وأزمور.

دون اتفاق مسبق، وجد كل منهم نفسه يرتمي في أحضان الآخرين، كنوع من رد الفعل على غربتهم بهذه القرية النائية، غريزة الاحتماء جعلتهم يرتبطون فيما بينهم بشكل حميمي، في غفلة من الزمن تمدد خيوط دقيقة تنقل الدفء إلى أفئدتهم، يجلسون كل مساء في البهو الخارجي للمقهى، يلوكون كلمات لا يملون من ترديدها، كل منهم يحرص على أن ينقل للآخرين ما استجد في عمله، ينغمسون في أحاديث لا تنتهي، الحرص على الحفاظ على توازن ما، كان يحبب إليهم ممارستهم هذه..

أحمد الممرض في المستوصف المحلي، أعشت بصره أشعة الشمس المنفلتة من سطوة السحب المتراكمة هذا المساء، تتملكه رغبة جامحة في الحديث ككل يوم عن مشاكله التي لا ضفاف لها.. أبطالها دائما هؤلاء البدويون الذين يعيشون بين ظهرانيهم. تجنب الأشعة، حدق في يحيي الموظف بالبلدية، وبلهجة أرادها أن تكون مشوقة قال له:

- يحيى، أتعلم ماذا حدث لي هذا الصباح؟

رد عليه بلكنة ساخرة:

- ماذا؟ هل عضك أحد المصابين بداء الكلب؟

تتلفت قهقهة من العربي الموظف بالجمارك، والذي أجبرته الظروف على ترك مدينة الدار البيضاء والنزوح إلى القرية للإقامة مؤقتاً كما يؤكد دائما، في بيت أحد أصهاره الميسورين، منحه له عندما اشتكت أخته من عدم قدرة الزوج على تسديد واجب الكراء المرتفع.. لجم ضحكته ثم قال موجهاً كلامه ليحيي:

- اتركه يكمل كلامه، فأنا كذلك أريد أن أحكي لكم ما حدث لي قبل يومين.

أجال الممرض بصره من حوله، وكأنه يريد من الجميع أن ينصتوا إليه باهتمام.. لاحظ أن سعدا المعلم في مدرسة القرية ما يزال يغوص في كتاب يحمله بين يديه، فوجه له الكلام:

- آ سّي سعد... ألا تتعب من القراءة؟ اترك الكتب للمدرسة، واستمع إلي.

رد عليه دون أن يرفع عينيه عن الكتاب:

- ماذا هناك؟ حكاياتك لا تنتهي، وأنا أريد أن أنهي هذا الكتاب لأرده إلى صاحبه غدا.

في تلك الأثناء جاء النادل ووقف جانبا، نظر إليه الممرض شزراً، ثم خاطبه بكلمات خالية من الود:

- "كالعادة"

انسحب النادل وهو يهمهم بكلمات مبهمة.. فيما لمع بريق في عيني الممرض، وهو يهم بسرد حكايته.. اندلقت الكلمات متسارعة من فمه:

- هذا الصباح، وقبل أن يلتحق باقي الممرضين بالمستوصف، فاجأتني امرأة متوسطة السن، أستطيع أن أجزم أنها في الأربعين من عمرها، تقدمت نحوي بخطوات مرتبكة، ثم

توقفت غير بعيد عني والتردد يترنـح على ملامـحها.. من خلال ملابسها تبدو أنها بدوية متأصلة في البداوة.. سألتها:

- تقدمي.. ماذا تريدين؟

اعتلاها الارتباك.. دنت مني بشكل ملحوظ وأخذت تفتح مـحفظتها.. أخرجت منها ورقة نقدية، دستها في جيبي، فنهرتها قائلا:

- ماذا تفعلين؟ ما هذا؟

لـم يترك يحيى الفرصة تفوته، فتدخل:

- لا تخجل منا. نحن أصدقاؤك.. أنت ترد للـمرأة نقودها؟ عجبا !

علامات الغضب ظهرت على وجه الـممرض:

- ماذا تعني؟ أنا مرتش؟

رد عليه بابتسامة تحتل شفتيه:

- لا. من قال هذا؟ فقط أعني أنها هدية والنبي قَبِـل الهدية..

خفت حدة الغضب من ملامـح الـممرض حين قال:

- أتظن كل الناس مثلك؟

انتقل الغضب إلى عيني يحيى، فوجه كلمات حادة إلى الممرض:

- ماذا تقصد؟

رد عليه الممرض:

- الله أعلم.

حاول يحيى أن يقول شيئا إلا أن العربي الجمركي تدخل بشكل حاسم:

- كنا عاقلين، وإلا ذهب كل منا إلى بيته. يحيى أرجوك... تابع آسي أحمد ماذا حدث فيما بعد؟

تابع الممرض كلامه:

- تصور، المرأة تريد مني أن أساعدها على الإنجاب..

تدخل يحيى وبابتسامة ماكرة تداعب شفتيه:

- كيف؟ هل تريد أن...؟

رد عليه الممرض:

- العن الشيطان ولا يذهب تفكيرك بعيدا..

اعتدل الجمركي في جلسته.. أخذ سيجارة من العلبة الحمراء، التي يحرص على وضعها أمامه على المنضدة، وفوقها قداحة

ذهبية اللون.. أشعل سيجارته، التفت نحو النادل الذي وصل في هذه الأثناء يحمل صينية مستديرة بها "براد" ومجموعة من الكؤوس، وضعها على المنضدة أمام يحيى، وقبل أن ينصرف خاطبه المعلم سعد:

- كأس ماء بارد، من فضلك...

وحتى لا ينفلت عقد الحديث، حض الجمركي الممرض على مواصلة الحديث:

- وماذا فعلت بعد ذلك؟

أمسك "البراد" بقبضته ثم قال:

- قلت لها إن عليها أن تذهب إلى طبيب مختص في المدينة.

أردف الجمركي:

- ثم ماذا؟

رد بلهجة أرادها أن تكون مؤثرة:

- بغتة أخذت المرأة تنتحب.. الدموع تنفر من عينيها بقوة، وهي تتوسل إلي بأن أساعدها، متعللة بأن امرأة أخبرتها أنها كانت تشكو الحالة نفسها، وادعت أنني ساعدتها على الإنجاب.

تدخل يحيي حينئذ، وكان قد تناسى غضبه:

- أرسلها لي، وأنا أساعدها على الإنجاب.. حقيقة أنت حمار..

عاد الغضب ليستولي على الممرض من جديد، فوجه إليه الكلام بكثير من الاستخفاف:

- تعلّم أولا كيف تتحدث مع الناس، ثم بعد ذلك ساعد النساء على الإنجاب.

أخذ الجمركي كأس شاي من الصينية... ارتشف جرعة ساخنة بطريقة استعراضية، بعد أن نفث سحابة من الدخان، ثم قال:

- وماذا بعد؟

أجاب الممرض وعلامات الاستغراب تترنح على ملامحه:

- تصور، تريدني أن أكتب لها تميمة كما فعلت مع صديقتها، أيعقل هذا؟

تعالت الضحكات من الجميع، في الوقت الذي انسلت يد سعد إلى علبة سجائر الجمركي.. أخرج سيجارة، فأسرع الجمركي إلى إشعال القداحة، ومد نحوه الشعلة المتضائلة.. شكر المعلم الجمركي، أخذ كأس الشاي بين يديه. ارتشف جرعة، ثم تطلع باحثا عن النادل الذي استبطأه.. نسيم بارد ينبعث بين الفينة

والأخرى، يذكر الجميع بالمارد الأزرق المرابض في الجهة الغربية للقرية..

انخرط يحيى في سورة من الحماس ثم خاطب الممرض:

- وماذا فعلت؟

أجاب الممرض بعد أن لاحظ علامات الترقب على وجوه الجميع:

- حاولت إقناع المرأة بأن ما سمعته من صديقتها لا أساس له من الصحة، وأنني لست مشعوذا.

تدخل يحيى مستفسراً:

- وهل اقتنعت؟

رد الممرض:

- أبدا، فجأة انقلبت المرأة إلى وحش كاسر.. انهالت علي بسيل من الشتائم، ثم انصرفت.

التفت الجمركي إلى المعلم محاولا إقحامه في الحديث:

- ما رأيك يا أستاذ في ذلك؟

أجاب المعلم وهو يتطلع إلى النادل الذي لم يأته بكأس الماء البارد:

- وهل صدقته؟

غضب الممرض ورمق المعلم بنظرة شزراء، ثم وجه إليه الكلام:

- وأنت، هل تظن أن أخبارك خفية عني؟

تردد المعلم لحظة ثم سأله بحنق:

- عن أية أخبار تتحدث؟

أجابه وهو يشيح ببصره عنه فيما، كانت ابتسامة استهزاء تعلو شفتيه:

- يقولون، والله أعلم، أنك تنام في القسم.

ظهرت علامات التضايق على وجه المعلم. مر النادل بالقرب منه، فخاطبه بصوت مرتفع:

- أين الماء؟ ألا يحترم الزبائن في هذا المقهى؟ ثم التفت إلى الممرض:

- اتركني صامتا.. هل تريد أن تعرف ما يقولونه عنك أنت كذلك؟

تدارك الممرض الموقف قائلا:

- دعنا مما يقوله أهل هذه القرية الملعونة.. كل ذلك إشاعات تافهة. أخبرنا كيف حال الصيد معك؟

لمس الممرض الوتر الحساس في نفس المعلم، فوضع الكتاب من بين يديه، ليحتل مكانه المعتاد على المنضدة، تناول الكأس من النادل.. عب جرعة من الماء البارد، ثم رد عليه:

- الصيد هذه الأيام ضعيف.. الماء بارد، والسمك يرحل نحو المياه الدافئة..

الشمس تميل تدريجيا نحو الغروب وقد فقدت كثيرا من توهجها.. الطيور انتظمت على امتداد البساط السماوي الأزرق، مشكلة خطوطا هندسية بديعة.. أكثرها على شكل زاوية من خطين طويلين، تنزلق كالسهم المارق، لا يعلم أحد أين سيستقر في نهاية المطاف.. من بعيد يسمع صوت السيارات التي تسير في اتجاه الدار البيضاء أو القادمة منها.. سرعتها تحيي في النفوس ذكرياتها لحوادث سير أليمة، عاشت القرية تفاصيلها المحزنة، فخلفت ضحايا لا حصر لهم.. رمى الجمركي عقب سيجارته الأصفر، تناول علبته ثانية، أخرج سيجارة أخرى، أشعلها.. لاحظ الممرض ذلك، فعلق بكلمات محتفية:

- مارلبورو.. الله يا عيني.. عمل الجمارك كله خير وبركة..

ارتاح الجمركي لتعليق الممرض ثم توجه بكلامه إلى المعلم:

- هل تصطاد دائما أثناء الليل؟

أجابه بلهجة العارف المتيقن:

- في الليل يسهل الصيد أكثر من النهار.

عقد الجمركي حاجبيه ثم قال:

- ألا تخاف أن تطلع لك ليلة ما "عايشة قنديشة"؟

ابتسم المعلم مبديا عدم اهتمامه بمخاوف الجمركي، ثم قال بلهجة واثقة:

- مجرد أوهام.

رأى الممرض أن الوقت مناسب للتدخل، فقال بتهكم:

- أنتم يا - معشر المعلمين- تملؤون رؤوسكم بالأوهام الحقيقية. أعرف أكثر من شخص أكد لي أنه رأى "عايشة قنديشة" وأنت لا تصدق ذلك..

نظر المعلم إلى الممرض مليا ثم قال له:

- تؤمن بكل هذا، وترفض أن تكتب تميمة للمرأة لكي تنجب.

شعر يحيى أن كلام المعلم نال من الممرض، فتدخل قائلا بسخرية لاذعة:

- ما رأيك؟ لماذا لا تحول المستوصف لضريح، وتصبح أنت "الحفيظ"..؟

لم يترك الممرض الفرصة تمر، فرد عليه بسرعة:

- وهل تشتغل معي عرافا؟

ارتفعت القهقهات.. أمام المقهى توقفت فجأة سيارة زرقاء.. نزل منها شاب وفتاة، يبدو أنهما قادمان من المدينة، يحاولان اقتناص لحظة حب بعيدة عن الأعين. تماسكا بطريقة استعراضية.. لم يهتما بالجالسين في المقهى.. تابعهما الجميع بأعين متحفزة.. نالت الفتاة نصيب الأسد. ملابسها الخفيفة، الملتصقة بجسدها المكتنز حرك في أعماق الجميع مياها آسنة.. اتخذ الشابان منضدة منزوية.. أسرع النادل نحوهما بهمة ونشاط ملحوظين.. لجم الممرض نظره ثم قال:

- الفتاة جميلة..

تناول الجمركي الولاعة من بين يديه، ثم وجه كلامه إلى الممرض.

- لـم تر الجمال الحقيقي، هل هذا هو الجمال في رأيك؟..

متحاشيا الاستمرار في الحديث عن الشابين، استدرك الـممرض قائلا:

- لا علينا.. دعنا في موضوعنا.. أستاذ، موجها الخطاب للـمعلـم، هل حقا لا تعتقد بوجود "عايشة قنديشة"؟

أجاب الـمعلـم:

- كلا... فتلك ليست سوى خرافة.

أردف الجمركي وقد بدت الحيرة على وجهه:

- ولكن الجميع يؤمن بوجودها.

وبلهجة يقينية رد الـمعلـم:

- بكل بساطة، لأن الجميع لا يعرف مصدر الخرافة، وقيل قديـماً إذا عرف السبب بطل العجب.. والناس تخاف ما تجهله.

- وكيف تفسر اعتقاد الناس بوجودها؟ استفسر الجمركي.

أجابه:

- لقد قلت لك لأنهم يجهلون أصلها.

- وما أصلها؟ تساءل الجمركي بلهفة:

جال المعلم بنظره، مسح المكان بعينيه اللتين التمع فيهما بريق الفخر بامتلاك المعرفة ثم قال:

- أصل الخرافة، أن امرأة، في زمن بعيد، حين كان البرتغاليون يستعمرون مدينة الجديدة، وكان جنودهم يعيثون في الأرض فسادا، ظهرت امرأة تسمى عائشة، فاتنة الجمال.. أغوت البرتغاليين بقدها المائس وعينيها الفاتنتين.. كانت تلتحف على عادة ذلك الزمان رداء أبيض، لا يظهر منها إلا جزء من وجهها وخاصة عيناها.. وكلما تحرش بها جندي استجابت له بغنج وتدلل، يتبعها الجندي، تختلي به، وحين يهم بأن يقضي منها وطره، كانت تستل خنجرا تغرسه بين ضلوعه.. شاع خبر المرأة عائشة التي أطلق عليها البرتغاليون "الكنتيسة" نظرا لجمالها، الذي جعلهم يعتبرونها في مرتبة الأميرة. وانتشر مع أخبارها الخوف منها، والرهبة من ذكرها.. فقد لاحظ الجنود ارتباط اهتمام أي جندي بها الموت.. وأضحى اسم "عائشة الكنتيسة" متداولا على الألسن مرفوقا بالرعب والموت..

مر الزمان، رحل البرتغاليون إلى وطنهم مخلفين آثارا في المدن التي استعمروها، أسوارا ومدافع وبنايات.. فورث عنهم

المغاربة بعض الأعين الزرقاء والخوف من عائشة القديسة، وتحول اسمها إلى "عايشة قنديشة" وأصبحت تظهر على ضفاف البحر ليلا، متلحفة بالبياض، تغوي الرجال فتسلب عقولهم، فيهيمون وراءها، وتصيبهم بالأذى..

ولست في حاجة إلى أن أوضح لك أن الجميع يتوارثون حكاية اعتدائها على الرجال.. والكل يختزن الحكاية في وعيه ولا وعيه، حتى إذا اضطرت أحدهم الظروف ليذهب إلى الشاطئ ليلا، توهم ظهورها له بوشاحها الناصع البياض، وقدميها اللتين تشبهان حوافر الحيوانات، وكل ذلك مجرد أوهام يصنعها دماغ الشخص الخائف فقط.

بدا بعض الاقتناع على وجوه المتحلقين.. لكن الممرض حانت منه ابتسامة، لتشي بعدم اقتناعه. وليؤكد ذلك قال موجها كلامه للمعلم:

- وهل تظن أن معرفة هذه الحكاية تكفي لطرد الخوف؟

أجابه المعلم بشيء من التعالي:

- الأمر يتعلق بشخصية الإنسان ومستوى تفكيره.

أحس المـمرض أن الكلام يتضمن إساءة إليه.. ابتلع ريقه، ثم لزم الصمت. أخذ المعلـم الكتاب بين يديه من جديد، وقبل أن يغوص في سطوره، التفت نحو الجمركي وخاطبه:

- أترافقني هذه الليلة إلى الشاطئ للصيد؟

أجابه وبعض التوتر باد على ملامحه:

- هذه الليلة لا أستطيع.. عندي ضيوف..

تدخل يحيى محاولا النيل منه:

- إنه يخاف أن تفاجئه "عايشة قنديشة".

أجاب الجمركي محاولا إبعاد التهمة عنه:

- والله العظيم عندي ضيوف.

الشمس في الأفق برتقالة كبيرة معلقة في الفراغ، تدنو من نهايتها الوشيكة.. الشفق اندلقت حمرته تخضب المارد الأزرق.. وفي الطريق الممتدة في اتجاه الشاطئ تناثرت أجساد متضائلة ما فتئت تنمو تدريجيا.. أناس اجتذبهم دفء الرمال ونعومتها وليونة الماء وبرودته، قضوا يومهم يختزنون أشعة الشمس تحت جلودهم، وقبل أن تختفي الشمس، حملوا أجسادهم المنهكة وغاصوا بأقدامهم في الطريق المتربة عائدين إلى القرية.

قام الشابان من مكانهما، توجها نحو السيارة والفرح يتراقص مع خطواتهما الجذلى.. نظرات الممرض اقتنصت عجيزة الفتاة المتمايلة، همهم بكلمات مبهمة، لاحظ يحيى حركاته، فابتسم ثم وجه إليه الكلام:

- العن الشيطان.. البنت في مثل سن ابنتك.

رد عليه الممرض بامتعاض:

- لا شغل لك سوى مراقبتي.. هذا الكلام قله لغيري.. أما أنا فأعرفك جيدا..

اضطرب يحيى، تماسك، ثم بلهجة غاضبة سأله:

- ماذا تقصد؟

أجاب الممرض وابتسامة خبيثة تتراقص على شفتيه:

- أقصد سهراتك مع رئيس البلدية.

احتد غضب يحيى، نهض من كرسيه بانفعال، وبكلمات متوترة قال:

- ملعون من يجلس معكم.

انصرف والتوتر باد على حركاته، فيما لحقته كلمات الجمركي المتوسلة:

- العن الشيطان.. إنه يـمازحك فقط..

لـم يهتـم بكلامه، واصل سيره، فوجه الـممرض كلامه للجمركي:

- دعه يذهب.. لو لـم يكن متأكدا مما يفعل، لـما انفعل بهذا الشكل.

التفت الـمعلـم، في تلك الأثناء، نحو الـممرض، رمقه بنظرة معاتبة ثم قال له:

- وأنت ماذا تستفيد من ذلك؟.. اتركه وشأنه..

حينذاك، ارتفع صوت الـمؤذن معلنا عن صلاة الـمغرب، بعد أن احتجبت الشمس بشكل كامل، وتسلل غبش، أعشى الأبصار، وأضعف الرؤية، فاختفت ملامح الأشياء من حولهم، أضحت عبارة عن أشكال متشابهة إلى حد بعيد، تابع الـممرض نداء الـمؤذن بكثير من الخشوع وهو يردد معه بعض كلمات الأذان.. تدفق عدد من الـمصلين نحو الـمسجد الذي لا يبعد عن الـمقهى كثيرا.. انتفض الـممرض ملتحقا بالـمصلين.. ران صمت ثقيل على الـمعلـم والجمركي.. تـملـمل الـمعلـم في مكانه، ثم انتصب واقفا، ودّع الجمركي قائلا:

- إلـى الغد، علي أن أذهب الآن.

رد عليه متسائلا:

- أليس الوقت مبكرا؟ انتظر قليلا.

أردف المعلم بكلمات أرادها حاسمة:

- لا.. إن الوقت مناسب.. أريد أن أستعد للصيد..

وبكلمات قريبة من الاستعطاف قال الجمركي:

- ألا يمكن أن نؤجل الصيد إلى الغد؟

رد المعلم مستفسرا؟

- لماذا؟

أجابه باحتفاء:

- أريد أن أدعوك إلى سهرة في بيتي.. جلبت اليوم زجاجتي ويسكي "بلاك أند وايت" ما رأيك؟

بدا بعض الاهتمام على وجه المعلم وهو يستفسره:

- ولكن، ألم تقل إن عندك ضيوفا الليلة؟

رد بلهجة مستخفة:

- وماذا تريدني أن أقول أمام هذين الرجلين، اللذين لا هم لهما إلا جمع أخبار الناس.

فكر المعلم لحظة ثم أجاب:

- اعذرني، لا أستطيع.. أحس برغبة لا تقاوم في الصيد.. مرت مدة طويلة لم أمارسه.. ألا تترك السهر إلى ليلة أخرى؟

أجاب الجمركي ومسحة من الود تستلقي على وجهه:

- لا بأس.. نصيبك سينتظرك.. لا تقلق.. اذهب إلى صيدك.

انصرف المعلم إلى بيته.. تبعه الجمركي بعينين شاردتين.. السيجارة بين أصابعه ترسل خيطا رفيعا من الدخان نحو وجهه.. يتفاداه بحركة خفيفة.. عمدت يده إلى "البراد".. أفرغ ما تبقى من شاي في كأسه.. ارتشف بلذة جرعة الشاي الباردة.. نادى النادل، طلب منه إحضار كأس ماء بعد أن ناوله ثمن المشروب..انصرف النادل، فيما ران صمت ثقيل على الجمركي، الذي أخذ يتململ في مكانه، ينتظر بفارغ الصبر من ينتزعه من شرنقة الصمت.. وهو ينتقل ببصره من مكان إلى آخر.. بعد دقائق لاح له الممرض عائدا من المسجد، يتقدم بخطوات تختزن كثيرا من الوقار.. انشرحت نفسه لرؤيته، فاستقبله بعينين باسمتين وهو يقول له:

- الله يقبل..

رد بخشوع:

- أمين.

اقتعد الممرض كرسيه وهو يردد بعض الكلمات المبهمة، توحي بأجواء الإيمان التي كان في أحضانها قبل لحظات.. وبعد هنيهة سأل الجمركي:

- أين الأستاذ؟

أجابه باقتضاب:

- ذهب إلى بيته، يريد الاستعداد للصيد مبكرا.

وجد الممرض الفرصة مناسبة، فعلق:

- يوما ما سيحدث له مكروه، ولن ينفعه أن يؤمن بوجود "عايشة قنديشة" أو بعدم وجودها.. الجن مذكور في القرآن الكريم، وعلينا أن نؤمن بوجوده، وكفى..

تناول الجمركي كأس الماء من النادل الذي تأخر في جلبه، ثم وجه كلامه إلى الممرض:

- اتركنا منه الآن.. كل إنسان حر في حياته.. يؤمن بوجودها أو لا يؤمن.. تلك مشكلته.. حدثني عن سهرات يحيى مع رئيس البلدية.. من أخبرك بذلك.. أريد أن أعرف تفاصيل هذا الملف.. لا يوجد في هذه الدنيا جن غيرك.. من أين تحصل على مثل هذه الملفات؟

وقبل أن يبدأ الممرض كلامه ليحكي تفاصيل سهرات يحيي في صحبة الرئيس، لاح ابن الجمركي تحت الأضواء المتعبة للمقهى.. انبثق فجأة من الظلمة التي ما فتئت تتكاثف شيئا فشيئا.. دنا من الرجلين، ألقى التحية على الممرض، فجذبه نحوه وطبع على خده قبلة، ثم قال:

- الله يصلح.. لقد كبر الفتى.. أصبح رجلا.

أحس الجمركي بالاعتزاز، وهو يتلقف كلمات الممرض، احتضن ابنه بعينين راضيتين، ثم قال معززا كلام صديقه:

- إنه يحصل على نتائج جيدة في الرياضيات.

وبعد ذلك وجه كلامه إلى الطفل:

- ماذا هناك؟ ماذا تريد؟

استجمع الطفل أنفاسه وداری ارتباكه ثم قال:

- ماما تقول لك إن قنينة الغاز فرغت. يجب استبدالها بأخرى.

رد الجمركي غاضبا:

- اذهب وقل لها أن تنتظر إلى الغد.

بيد أن الصبي قاطعه:

- ولكن طعام العشاء لـم يطبخ بعد.

تلفظ الـجمركي بكـلمات خانـقة، نـهض من كرسيه، ودع الـممرض ومضى في طريقه نـحو البيـت صحبة ابـنه.. خطواتـهما تتشابك فيـما بينهما، شيعـهما الـممرض بنظرات متكاسلـة، رآهـما يتقدمان ببطـء، ثم ما لبثا أن امتصتهما الظـلمة، فاختفى أثرهما.

تـملـمل الـممرض في مكانه، تجول في ذهنه فكرة العودة إلـى البيت، مع أنه تـمنى لو وجد من يستـمر معه في السمر.. التفت يـمينا ويسارا.. ليس هناك من يـمكن مسامرته.. فكر أن يظل في الـمقهى حتى يؤذن الـمؤذن لصلاة العشاء، فيؤديها جماعة في الـمسجد ثم يغادر نحو البيت، لكنه سرعان ما تراجع عن فكرته، وقرر أن يصلي العشاء في حضن بيته.. نهض بتكاسل من على الكرسي.. وبخطوات متثاقلة مضى في طريقه، يقتلع قدميه من الأرض اقتلاعا، وكأنه يحمل على كتفيه ثقلا لا قدرة له على تحمله.. صادف في الطريق بدويا ألقى عليه التحية، ردها عليه دون حماس، وواصل سيره في اتجاه الـمنزل الذي يقبع وحيدا جانب الـمستوصف.

الفصل الثاني

البيت الذي يقيم فيه المعلم سعد مع أسرته الصغيرة، لا يميزه شيء عن باقي البيوت المنتشرة على امتداد القرية.. بيت إسمنتي بني على عجل يفضح ظاهرة البناء العشوائي، التي زحفت في المدة الأخيرة على هذه المنطقة.. اشتراه من أحد الفلاحين الميسورين.. يفصله عن البيت الكبير للفلاح سور لا يصعب تجاوزه.. الجدران الخارجية مطلية بالبياض الذي لا يزال ملعلعا رغم غبش أول الليل.. الباب الحديدي يتوسط الجدار الخارجي للبيت، وعلى جانبيه حوضان غرست فيهما أنواع من النباتات، يمكن بسهولة تمييز رائحة النعنان من بين الروائح المختلطة.. في الجانب الأيسر من البيت انتصبت شجرة سامقة، أضحت بفعل الظلمة الخفيفة كتلة واحدة، لا يمكن تمييز أجزائها.. حين ألقى المعلم سعد بنظره نحوها، بعثت في نفسه إحساسا بعدم الاطمئنان، تجاهلها بسرعة، ثم توجه نحو الباب، أدخل المفتاح في الثقب

أداره فتماهى إلى سمعه صرير خفيف، لم يهتم به كثيرا.. أمسك مقبض الباب الحديدي بيده اليسرى، أحس ببرودته تلسع ملمسه، دفعه بكل قوة.. انفتح الباب فواجهه صمت كريه في باحة المنزل.. بخطوات مستعجلة تقدم نحو الداخل، نادى زوجته:

- عائشة، عائشة، أين أنت؟

بلغه صوت خافت من غرفة النوم، توجه نحو مصدر الصوت، فوجد زوجته ممددة على السرير، وفي حضنها تكور ابنها وقد غط في نوم عميق، فاجأته حالتها فسألها:

- ماذا بك؟ لماذا أنت نائمة؟

بصوت متعب أجابته:

- هذا المساء دهمني مغص شديد أسفل البطن.. طعامك في الفرن إذا احتجت شيئا أيقظني.. سأنام قليلا، ربما يختفي الألم.

دلف نحو المطبخ.. الصمت يخيم على البيت، فتح الفرن أخرج صحنا، لاحظ أن الطعام لا يزال دافئا، جلس على الكرسي وأسند مرفقيه على المائدة.. جالت بذهنه هواجس متناقضة.. فكر فيما دار بينه وبين أصدقائه في المقهى من حديث.. تناول الطعام بتؤدة.. تناهى إلى مسمعه صوت قط يموء بشكل رتيب

ومقزز.. فتح الثلاجة أخرج قنينة ماء.. سكب الماء مباشرة في جوفه، ارتوى بشكل مبالغ فيه.. لا يستطيع التركيز على شيء محدد.. أفكاره مضطربة تنتابه، تتقافز الهواجس إلى ذهنه، حزن خفيف ما فتئ يتسرب إلى قلبه.. أكمل طعامه، غادر المطبخ، تقدم نحو قصبة الصيد الممتدة على حاشية البهو.. وبذهن مشوش نظر إليها مليا، مد نحوها أصابعه، داعبها بنوع من التوجس.. كاد يعدل عن فكرة الصيد هذا المساء، لم يفلح في ذلك.. شرع يجمع عدته.. السنانير، الخيوط بأنواعها.. اطمأن على الطعم، الذي انبعثت منه رائحة كريهة.. كل شيء على ما يرام.. ارتدى ملابس دافئة، علمته التجربة أن لا يثق في أحوال الجو، فقد تتغير بسرعة غير متوقعة.. أخذ معه بعض الطعام والماء.. حمل القصبة على كتفه وتوجه نحو دراجته النارية، وقبل أن يغادر البيت أوقفته زوجته ومعالم الشحوب بادية على وجهها، استفسرته قائلة:

- إلى أين إن شاء الله؟

أجابها بكلمات مقتضبة:

- إلى الصيد طبعا.. إلى أين يمكنني أن أذهب؟

وبلهجة مستعطفة أردفت:

- ألا يـمكن أن تؤجل ذلك اليوم؟

أجابها مستغربا:

- ولكن لـماذا؟

قالت بصوت أرادته مؤثرا:

- ألا ترى؟ أنا مريضة.. أخاف أن تسوء حالتي، فلا أجد من يسعفني.

رد عليها بكلـمات توخى أن تكون حاسمة:

- لا.. لا يـمكن.. سوف تتحسنين.. أنت تدرين أنني لـم أذهب للصيد منذ مدة طويلة.. والليلة أراها مناسبة.. لا بد أن أذهب.. لا تخافي، لن أتأخر كثيرا.

لـمست إصراره على الذهاب فازدادت حدة لهجتها:

- وماذا تستفيد من هذا الهم؟.. الصيد.. الصيد.. لن ترتاح منه حتى تصاب بمكروه.. الصيد في الليل مخيف، ألا يكفيك النهار.. إن كنت لا تخاف على نفسك، خف، على الأقل، من أجل ابنك.. أم أنك لا تفكر إلا في نفسك.

بدا له من العبث الاستمرار في هذا الحديث، أمسك دراجته بكلتا يديه بعد أن أخرج القصبة وأسندها على الحائط الخارجي.. أدار المحرك، أغلق باب البيت، ركب الدراجة، أسند القصبة على كتفه الأيسر، وعلق القفة على مقود الدراجة.. ومضى في طريقه..

كان الظلام قد دثر القرية بردائه الأسود، فالقمر قد منعته السحب من نشر ضيائه.. تمدد أمامه ضوء مصباح الدراجة بلونه الأصفر يكشف له الطريق الترابي.. الأشجار متناثرة على امتداده، وفي جنباته أشجار لا يمكن تبينها إلا بعد مشقة.. بعد لحظات بلغ الإسفلت، لاحظ سيارة تتقدم أضواؤها القوية بسرعة، توقف حتى مرت ثم عبره مسرعا، ليغوص في طريق آخر.. فتتكاثف المزروعات على جنباته.. إنها حقول القمح التي تطاولت سيقانه، لكنه في لحظته هذه لا يرى منها غير كتلة من السواد، أحس أنه لا يستطيع طرد الهواجس التي هيمنت على تفكيره.. تمنى من كل قلبه لو أن السحب تتبدد، لعل ذلك يفسح المجال للقمر، كي يتوسط كبد السماء، ويقهر الظلمة التي أرخت سدولها على المكان من حوله.. جال في خاطره أن ذلك كفيل بأن يزيح الهم عن

صدره.. لكن لماذا يفكر، باستمرار، في الحديث الذي دار بينه وبني أصدقائه في المقهى؟.. "كل ذلك مجرد خرافات" كرر هذا القول مرات متعددة بينه وبين نفسه، ومع ذلك لم يقو على الكف عن التداعي مع هواجسه.. كلما تقدم في طريقه، امتلأت رئتاه برطوبة منعشة.. أنفاس البحر تستقبله بأحضانها اللطيفة، فكرأنه بعد قليل سيكون قي مقابلة الزرقة الممتدة، وسيعيش اللحظة الجميلة بكل كيانه، سيعد كل شيء بإتقان، كما يستحق أن يكون.. "أف لهذه الأفكار التافهة التي تخنقني.. ما معنى هذا؟.. أليس كل ذلك وهماً لا يستحق مجرد أن أفكر فيه؟".

اشتاقت نفسه إلى الرمال الباردة، سيتطلع إلى الصخور الناتئة، ويكحل عينيه بسوادها الشديد البهاء.. سيرمي سنارته في أحضان المارد، تتلقفها الأعماق بحنان ولطف.. ينتظر بشغف، كل نأمة أو هزة تحرك عواطفه.. حينها سيتخلص من كل الهواجس التي لا معنى لها.. سيترقب بصبر وأناة أن تعلق السمكة بسنارته.. "لا يقوى على الصبر إلا الجبابرة" ترددت هذه الكلمات في أعماقه، أعجبته صياغتها.. افترت شفتاه عن ابتسامة الرضا عن النفس.. صوت الدراجة يمزق الصمت مترامي الأطراف.. حقول القمح

تغدو شيئا فشيئا أكثر سوادا.. يحس ببعض التصلب في كتفيه الذي تستند عليه القصبة، سيهرع إليها، يمسكها بطريقة محترفة.. لابد من رجة قوية، ثم يخفف "اللين لا بد منه.. إذا كنت صلبا ستتكسر" ثم يمسك الجرارة، يجمع الخيط بأناة وثقة يحرك القصبة يمينا ويسارا، ييتقدم إلى الأمام بعض الخطوات ثم يتقهقر إلى الخلف.. كل شيء لابد أن يكون مضبوطا.. وحين تلوح من الماء، لابد أن يعاملها بلطف، دون تسرع.. سيمتع النظر بها وهي تضطرب في الماء، تتلوى، سينعكس على قشرتها ضياء القمر "سأستعمل شبكتي في الإمساك بها" صوت الدراجة يرتفع في الفضاء.. يحاول تجنب الأحجار المتراكمة، تناهى إليه نباح كلاب ما لبث أن علا بإصرار أربكه.. أحس بأن شجاعته تخونه.. لكنه قهر اضطرابه في المهد.. ندم للحظة لأنه لم يستجب لتوسلات زوجته "ماذا كان سيحدث لو أجلت الصيد إلى يوم آخر؟" إحساس بالذنب تسرب إلى ذهنه، بعد هنيهة أضحى شوكة تنغرز في مكان من قلبه.. "أنا دائما متصلب في آرائي، لا أتنازل قيد أنملة" حاول أن يكفر عن ذنبه بمثل هذا الكلام القاسي الذي وجهه لنفسه.. الإحساس بأنه مخطئ أصبح أكثر قوة من أي وقت آخر..

تخيلها مسجاة على السرير تئن من المرض.. الشوكة تنغرز أكثر في قلبه "ما ذنبها؟ لماذا أسبب لها الألم؟" تساءل في أعماقه.. هل يعود من حيث أتى؟ لا يستطيع التفكير في ذلك الآن بعد أن قطع كل هذه المسافة.. حين يعود إلى البيت سيعتذر لها.. وربما لن يذهب إلى الصيد مستقبلا إلا بعد موافقتها.. تمددت في ذهنه صورة الطفل وهو ينام في حضنها، ترى ماذا يحدث له لو أصيب بمكروه.. التفكير في هذا الأمر ضاعف من الهم في قلبه.. و"عايشة قنديشة" هل حقا خرافة؟" ماذا سيكون مصيره لو انبثقت له من العدم.. اضطربت ابتسامة زئبقية على شفتيه، محاولا من خلالها تبديد هواجسه.. حاول أن يتخيل صورتها.. رأى أن ذلك لا يليق به.. لا مجال للإيمان بالخرافات.. كل شيء سيمر على ما يرام.. تحققت فجأة إحدى أمنياته.. القمر أطل من بين السحب بوجهه المستدير، فكشف العالم من حوله.. انفرجت أساريره بعض الشيء.. رأى ظهوره البهي فألاً حسناً.. فليؤجل التفكير في كل شيء، فقط، وبصفة مستمرة يمكنه التركيز في الصيد.. الليلة مادامت بدأت بهذا الشكل، لابد أن تكون مثمرة.. الصيد، بلا شك سيكون وفيرا.. تذكر – لحظتها- صديقه الجمركي، وفكر أنه

يحبه بحق.. بينه وبين نفسه قرر أن يحمل له بعض السمك صباح الغد.. الحقول أضحت أقل سوادا.. ضياء القمر صنع منها لوحة بديعة.. والسحب ما فتئت تتبدد.. تمضي في اتجاه الشرق.. الرياح الخفيفة المنبعثة من أعماق المحيط تقودها ببطء نحو الآفاق البعيدة.. وبعد قليل ستتزين السماء بعشرات النجوم المتلألئة.. البحر.. القمر.. النجوم.. الرطوبة.. الصيد.. نعم لا يمكن إلا أن تجعل من يتمتع بها سعيدا "لتذهب عايشة قنديشة إلى الجحيم" تردد هذا الكلام في نفسه، اطمأن لذلك.. هذا يعني بالنسبة إليه أنه استطاع أن يخنق هواجسه أن ينتصر عليها.. لا مجال للانقياد وراء الأوهام.. العالم أجمل مما يظن الناس النائمون في أحضان الوهم.. لكن لماذا نباح الكلاب لا يزال يترصده؟.. رغم الأزيز المرتفع للدراجة إلا أنه يستطيع أن يتبين بوضوح أصواتها المتعالية.. على أية حال لم يعد يفصله عن رمال البحر سوى مسافة قصيرة، وهو الآن يتجاوز حقل الذرة، وها هو يتاخم رمال الشاطئ... سويقات الذرة بدت له من خلال ضوء مصباح الدراجة متراصة في صفوف تكاد تكون متوازية.. طالما ملكت لبه هذه الصفوف البديعة وهو يتوجه نهارا إلى الشاطئ.. خضرتها اليانعة تغري بالارتماء في

أحضانها.. يحاول تجنب بعض الحفر التي ظهرت فجأة، ارتجّت الدراجة ارتجاجاً عنيفاً، في تلك الأثناء وبشكل لم يتوقعه انبثقت من وسط نباتات الذرة مجموعة من الكلاب.. نباحها متواصل وشرس.. كاد أحدها أن يعضه في قدمه.. حاول تجنبه، إلا أن الكلاب لاحقته بإصرار لا يلين.. ضاعف من سرعة الدراجة.. اصطدمت العجلة بكتلة من الأحجار.. توقف ذهنه عن التفكير.. كل شيء مر بسرعة فائقة.. ارتجت الدراجة.. فقد توازنه، تهاوى على الأرض بكل كيانه.. ارتمت الدراجة على حاشية الحقل.. اختفت عجلاتها الأمامية بين النباتات.. فيما كان جسده قد تمدد في الجهة المقابلة على بعد خطوات من الدراجة النارية.. اصطدم رأسه بحجارة صلبة كانت إلى جانب الطريق.. الدماء تنزف.. لم يعد يشعر بما يدور حوله.. استسلم لنوم عميق.. عميق جدا.. لاشيء أضحى يربطه بالعالم.. لا شيء البتة.. الكلاب تابعت طريقها تبحث عن لحظات اللذة تحت ستار هذه الليلة المقمرة.. فيما ظل الجسد مسجى يداعبه النسيم الشارد في كل الاتجاهات، غير عابئ بما يحدث في هذا العالم، مواصلا بإصرار مطاردة السحب المذعورة نحو أفق، لا تكاد تعلم عنه شيئا، فاسحة المجال للقمر

بوجهه الأصفر الشاحب ليتربع على عرش العالـم، بحياد مقرف، وبلادة تفوق التصور.

الفصل الثالث:

روائح غريبة تنبعث من المكان زكمت أنفي.. تمتزج فيما بينها امتزاجا كليا.. لا يمكن أن أتبين تفاصيلها.. ثوب ناعم يمرر على جسدي، يستثير إحساسي، بصعوبة أفتح عيني بشكل متدرج.. دخان أبيض كثيف يلف المكان من حولي.. أغمض عيني من جديد وقد تملكتني رهبة لا مثيل لها.. وجيب قلبي يتضاعف، الرعب يستبد بي، أقاوم نعم أكاد أجزم بذلك.. تقف على مقربة مني.. تبدو لي، وأنا ملقى على الأرض، فارعة الطول. ملابسها ناصعة البياض.. بياض لا يمكن مقارنته بأي شيء، إنه مختلف جدا، الثوب يغطي جسدها بأكمله.. شعر فاحم ينسدل على كتفيها، تتمدد خصل منه لتغطي جزءا من صدرها.. أنبهر بحضورها غير المتوقع.. أحاول أن أنهض.. لاأستطيع.. شيء ما يكبلني، يمنعني من الحركة.. أمعن النظر أكثر.. الدخان لا يزال ينبعث من كل مكان.. أستطيع أن أرى ابتسامة تداعب شفتيها في

خفر.. أحملق بعنين ذاهلتين.. أنا عاجز عن تكوين فكرة حول ما أحياه أين أنا؟.. من هي هذه المرأة؟ الغموض يلف كل شيء.. ولكن لماذا لا أستطيع أن أغادر مكاني.. أريد أن أنتصب واقفا.. لا بد أن أفهم الذي يجري في هذا المكان الغريب.. أفتح عيني بكل ما أملك من قوة.. أتبين ما يشبه الطيور إنها- بالفعل- طيور، لكنها غريبة، تحلق في اتجاهات مختلفة، أحجامها غير عادية.. إنها ضخمة بعض الشيء.. لا تصدر أصواتا محددة.. صامتة في طيرانها.. وما يدريني؟ ألا أكون قد أصبت بالصمم.. لا يعقل أن يوجد مثل هذا الصمت في أي مكان من العالم، المرأة لا تزال ترمقني بنظرة لا أفهم معناها، ابتسامتها الحلوة لا تزال معلقة على ثغرها.. أحس اللحظة أنني أستطيع التحكم في حواسي بشكل أفضل. حركت أطرافي فاستجابت لي.. استندت على يدي وأنا أحاول أن أنهض من مكاني.. الأرض التي لمستها زادت من استغرابي.. شيء لم ألمسه من قبل.. لا أستطيع أن أكوّن عنه فكرة محددة.. أعتدل في جلستي.. المرأة ابتعدت عني بشكل مفاجئ.. من مكاني أراها وقد اختفى جزء منها في الدخان.. تماسكت أكثر.. تلفت في اتجاهات مختلفة.. أصبحت الآن أميز

أصواتا متداخلة.. صفيرا.. همهمات بعيدة، متواصلة.. حفيف أشجار لا أراها.. انتصبتُ واقفاً.. الطيور تحلق في كل الاتجاهات.. أعدادها مثيرة.. لا تهتم بوجودي، وكأنني والعدم سواء..حاولت أن أركز نظري.. لم أقو على ذلك.. مشيت- دون وعي مني- خطوات إلى الأمام.. أحاول أن أدرك المرأة.. بياضها استحال مغناطيسا يجذبني نحوه.. لكن لماذا كلما اقتربت من مكانها، ابتعدت أكثر.. قلت في نفسي "ربما أنا في حلم" لكن لماذا لا أستطيع أن أستيقظ من هذا الحلم الغريب.. واصلت سيري.. لاحظت أن المرأة، بهذه الطريقة تستدرجني لأتبعها.. إلى أين تقودني؟ تطلعت إلى أعلى.. السماء سحيقة.. خالية من أية علامة.. زرقتها غير صافية.. يختلط لونها بلون الدخان.. الأرض التي أمشي عليها غريبة.. خطواتي لا تكاد تستقر، أشعر بها خفيفة إلى حد ما.. الدخان في هذه اللحظة يتبدد تدريجيا.. أستطيع أن أرى الأشياء بوضوح أكبر.. أشجار جرداء تنتشر في كل مكان، أغصانها متشابكة بعنف.. تتدلى منها بقايا متنوعة.. المرأة تبدو أكثر وضوحا.. دنوت منها بشكل كبير.. لم تبتعد هذه المرة.. سألتها:

- من أنتِ؟..

ابتسمت، لا يمكن أن أتجاهل شبها بدا لي في ملامحها.. إنها تشبه - بشكل كبير- شخصا أعرفه.. أحاول أن أتذكره.. لا أستطيع.. الملامح تنفلت من ذاكرتي.. بصوت متعب ولهجة متوسلة أعدت عليها السؤال:

- من أنتِ؟ أرجوك أجيبيني.. أريد أن أعرف.

الابتسامة نفسها تستلقي على شفتيها.. وبصوت تردد صداه في المكان من حولي أجابتني:

- ألم تعرفني؟

الشّبه يكاد يتضح، لكن لا أستطيع أن أجزم بشيء.. أجبتها:

- لا أعرف.. قولي من أنتِ؟

أجابت:

- أنا عائشة.

نعم أعرف الآن، إنها زوجتي.. عائشة.. سألتها:

- هل أنت زوجتي عائشة؟

لم ترد فأردفتُ:

- ولكن لم أنت في مثل هذه الملابس؟.. لماذا أحس أنك غريبة عني؟ أين نحن؟ ركزت بصري على وجهها فإذا بملامحها

تتغير.. لـم تعد ملامـح زوجتي صدمت للتغيير الـمفاجئ.. خاطبتها والدهشة تكبلني:

- أنت لست زوجتي.. من أنت؟.. أنا لا أعرفك !

بالصوت نفسه الذي خاطبتني به قبل قليل أجابت:

- قلت لك.. أنا عائشة.. لا تخف، اتبعني ستعرف كل شيء.

تساءلت في أعماقي، "لـماذا أجد نفسي أنساق وراء خطواتها، ثم هذه الطيور من حولي لـم لا تكف عن الطيران؟" فجأة تنبثق من العدم بوابة ضخمة أبهرتني ضخامتها، ألوانها متداخلة. زينت بنقوش غريبة، في أعلاها مجسم لأحد تلك الطيور التي لا تكف عن الطيران.. توقفت مأخوذا بشكل هذه البوابة.. الـمرأة أمامي.. تدنو من البوابة بشكل كبير تكاد تلـمسها، وبغتة ترتفع في الجو، يرجني ذلك من أعماقي.. أحاول أن أفهم.. إنني في عالـم مختلف.. ربما في حلـم.. لا يـمكن أن يكون ما أعيشه إلا حلـما.. وإلا لـماذا ترتفع هذه الـمرأة في الهواء، ثوبها ظل ملتصقا بالأرض.. إنه بطول خرافي.. الطيور الـملحقة في الأجواء لا تهتـم بالـمرأة، التي تعلقت في أعلى البوابة.. تواصل طيرانها بالحماس نفسه، لا تبالي بما حولها.. أردت أن أصرخ..صوتي يخونني.. وفجأة ارتفع قرع طبول.. لا أدري

عدد الضربات.. تلاه صوت عظيم، مفزع.. أظن أنه ضرب على جسم من النحاس.. ارتج كياني من جديد.. أريد الهرب.. لا أستطيع.. البوابة تنفتح.. خطواتي، تقودني لألج البوابة.. كانت رياح تنبعث من أعماقها، قوية بعض الشيء.. لاحظت أن ثياب المرأة البيضاء تتحرك في كل الاتجاهات.. قاومت حركة الرياح.. وجدت نفسي داخل مكان جديد مؤثث بشكل أفضل.. من حولي كائنات تتحرك في كل الاتجاهات.. تمشي، تطير، تزحف.. وقع بصري من جديد على المرأة.. أحسست أنها تنسجم مع هذا العالم.. أغمضت عيني، أريد أن أركز بشكل أفضل.. فتحت عيني، فإذا جماعة من هذه الكائنات تحلق حولي.. بعضهم بعين واحدة، شعورهم تتدلى في فوضى على أكتافهم.. لاحظت أن بعضهم تنبت لهم قرون يتفاوت حجمها من كائن إلى آخر.. ملابسهم تختلط فيها ألوان صارخة، إنهم حولي.. يكوّنون حلقة، تضيق بالتدريج.. الخوف يستبد بي.. ملامحهم تبعث على التقزز.. ماذا أفعل؟.. رباه ما هذا؟.. الأرض التي أثبت عليها قدمي لزجة.. أكاد أحس بحركة تدب فيها.. صرخت صرخة مدوية أو ربما حسبتها كذلك.. لكنها تفجرت فقط في أعماقي. أنفاسي تكاد تنكتم.. رفعت رأسي إلى

أعلى لا تزال المرأة معلقة، تنظر إليّ ببلاهة والابتسامة الزئبقية لا تفارق شفتيها.. فكرت أن أركض في أي اتجاه.. استجمعت قواي.. هجمت على المتحلقين حولي.. حدثت مفاجأة لم أكن أتصورها، لقد مررت من خلالهم.. اخترقتهم بسهولة تامة، واصلت ركضي.. بعد لحظات وجدت نفسي وسط غرفة، علقت على جدرانها مرايا بأشكال مختلفة، انعكست عليها صورتي.. اقتربت أكثر من إحداها.. ثم التفت إلى أخرى.. نعم إنها صورتي تلك التي تنعكس في المرايا.. شيء ما أثار انتباهي: الملامح تتغير.. إنها مرايا خادعة.. لم تعد تعكس صورتي.. إنها صورة مختلفة عني، صورة إحدى الكائنات التي كانت إلى وقت قريب، تتحلق حولي.. الغرفة لا باب لها ولا نوافذ.. في تلك الأثناء أخذت صورة تلك الكائنات تنبثق من المرايا، تصدر أصواتا مخيفة، أغلقت أذني بكلتا يدي.. الصوت يخترق جدار اليدين، يتسرب إلى كياني، يبعث في نفسي الرعشة.. اخترقني دبيب مثير.. انتشر- بسرعة - في كل أعضاء جسدي.. جثوت على ركبتي.. لا أزال أضع يدي على أذني.. لم أعد قادراً على النظر إلى الكائنات المخيفة.. أين المرايا؟ لا وجود لها.. أنزلت يدي بتؤدة واحتراز من على أذني..

التفت في كل الاتجاهات لا شيء البتة.. أين اختفت كل هذه الأشياء.. بغتة ظهرت من حيث لا أدري.. دنوت أكثر لألمسها وأتأكد من أنها فعلا مرآة.. فاجأني بروز المرأة المتشحة بالبيضاء على صفحتها.. ارتج قلبي.. نكصت إلى الخلف.. لاحظت المرأة اضطرابي، فخاطبتي:

- لا تخف.. إنك في أمان.. أنت الآن في حمايتي.

وبصوت متوتر مشبع بالخوف قلت لها:

- لكن من أنت؟

أجابت والبسمة لا تغادرها:

- ألم تعرفني بعد؟ انظر جيدا.

تخلصت بعض الشيء من الخوف الذي يهيمن على كياني.. خطوت خطوتين نحو المرأة.. نظرت إليها بتمعن.. قلت باندهاش:

- أنت زوجتي عائشة، ولكن لم تلعبين معي هذه اللعبة القذرة؟.. لقد أفزعتني.. ارتجت الغرفة بقهقهة قوية، صدرت عن المرأة، وفي تلك الأثناء ظهرت المرايا من جديد على الجدران، تعكس جميعها صورة المرأة وهي تقهقه بصوت مرتفع، غير أن

ملامحها انزلقت.. ذابت.. اختفت لتعوضها ملامح أخرى.. عقدت الدهشة لساني.. لم أجرؤ على النبس بكلمة واحدة، شعرت أن دمعة ساخنة طفرت من عيني.. قالت المرأة بصوت مجلجل، تردد صداها في جنبات الغرفة:

- اسمع أنا عائشة، وأنت في حمايتي.. لا تخف..

- استرجعت بعض شجاعتي، وانحلت عقدة لساني، قلت بلهجة مستعطفة:

- لكن ماذا تريدين مني؟

عادت إليها ابتسامتها الخفرة:

- أريد أن تتزوجني.

أجبت على الفور:

- إذا كنت عائشة زوجتي، فلم تطلبين مني أن أتزوجك من جديد؟

ظهر عليها بعض التضايق، فاختفت الابتسامة، ولمع بريق غريب في بؤبؤي عينيها قم، قالت:

- أنا لست زوجتك، أنا عائشة فقط، وأنت لا بد أن تتزوج بي وإلا أفقدتك أعز شيء عندك..

داهمني الارتباك من جديد استفسرتها بلهفة:

- ماذا تقصدين؟

أجابت بلا تردد:

- سأختطف ابنك.

- ابني لا، أرجوك..

وفي تلك اللحظة، لاح لي من بعيد كائن يخترق السماء. يتقدم نحوي بإصرار.. إنه يشبه تلك الطيور التي كانت لا تكف عن الطيران.. دنا مني.. فإذا هو ابني وقد نبت له جناحان.. أحسست أن نفسي تخلصت من همومها فجأة، إنه يحلق باتجاهي.. تعلق به بصري بلهفة وشوق.. إنه يقترب.. يطير نحوي بإصرار.. كلما دنا أكثر، تتضح ملامحه.. وجوده أعاد إلى نفسي بعض الثقة.. إنني لست وحدي في هذا المكان الغريب.. أفردت ذراعي.. أحضاني منفتحة لاستقباله.. ارتمى بقوة في حضني وهو يصيح:

- بابا..بابا.. بابا..

كدت أبكي من الفرح.. ضممته بكل ما أملك من قوة، أغمضت عيني لأتلذذ حتى الثمالة، بهذا اللقاء المفاجئ. بغتة رجت كياني قهقهة لا أدري مصدرها.. فتحت عيني.. رأيت المرأة تضحك

وعلامات السخرية بادية على سحنتها.. انتبهت إلى ابني في حضني.. وإذا به ليس ابني.. إنه واحد من تلك الكائنات الغريبة.. مسخ في أحضاني.. حاولت التخلص منه.. تشبث بي بكل قوة.. وأخيرا تركني وطار في الأجواء.. أصابني ذلك بالغثيان.. جثوت من جديد على ركبتي، وأخذت أخرج ما في معدتي من طعام.. الحموضة في فمي مقززة.. زادت من كرهي لكل ما حولي.. والمرأة لا تزال تنظر إلي بلا مبالاة.. رفعت رأسي نحوها، قلت لها باستعطاف:

- لم تفعلين معي كل هذا؟

أجابت:

- لكي تكون مطيعا، وتستجيب لأوامري.

منهكا أردفت:

- ماذا تريدين؟.. ألا تعرفين أنني متزوج؟

ردت:

- ليس ذلك مهما.. سأحتفظ بك لنفسي.. أردت ذلك وسأنفذه.

وبلهجة المستسلم قلت لها:

- وكيف أستطيع أن أنفذ رغبتك؟

ارتسمت البسمة على شفتيها ثم أجابت:

- هكذا أريدك.

فكرت أنه لابد من مسايرتها إلى أن أفهم ما يحدث.. انتبهت فجأة إلى ملامح شخصية أعرفها كانت ترافقني من بداية الرحلة، توجد في خلفية الأحداث.. لا تظهر بوضوح.. لكنها حاضرة.. تبدو باهتة في وجودها.. حاولت أن أركز لأعرف صاحبها.. لعل ذلك يعيد إلى نفسي بعض الأمل.. اللحظة أستطيع أن أتبينها بشكل أوضح.. إنها صورة الممرض.. نعم إنها صورته.. كانت مخفية في ذهني بوضوح.. وفجأة ابنثقت في المرآة.. الممرض يبتسم ابتسامة ساخرة.. قلت له، والدهشة تلفت حول رقبتي:

- ماذا تفعل هنا؟

قبل أن أتلقة منه الإجابة، تبددت صورته، لتعوضها صورة المرأة وهي تقهقه من جديد، وبصوت استعراضي قالت:

- لاحظت أنني أستطيع أن أطلع على أفكارك.. لا تحاول خداعي وإلا فقدت فيك الثقة.. حينها ستضطرني لأعاملك بشكل مختلف..

رائحة البخور انبعثت من جديد.. الـمكان يتغير تدريجيا، أهيـم في أرض خلاء، فارغة من أي كائن. وحيدا أجر قدمي الـمنهكين.. البقايا متراكـمة في كل مكان، الصمت يجثم بسجده الهائل على الـمكان من حولي.. تتحدد أمامي فجأة، ملامـح طريق طويلة.. في جنباته تنتصب أعلام بألوان مختلفة خضراء.. حمراء.. سوداء.. في أعلاها مجسمـات صغيرة للطيور التي كانت تحلق في الأجواء.. قوة خفية تدفعني للـمضي في هذا الطريق.. أشعر أنني مسلوب الإرادة.. أتجه نحو الأمام.. ألتفت في كل الاتجاهات.. ملامـح الـممرض لا تزال تهيـمن على ذهني أحس أنني مراقب من طرف شخص ما.. أحاول أن أتبين طبيعة الـمكان الذي أنا فيه.. لا شيء يسعفني في ذلك.. بناية ضخمة تنتصب في نهاية الطريق.. انجذبت نحوها بشكل غريب.. العرق يتصبب من كل مسام جسدي.. لا أفلح في التركيز على أي شيء.. ما معنى أن تطلب مني أنْ أتزوجها؟.. لـماذا صورة الـممرض تصاحبني في رحلتي دون غيرها؟ هل أنا في حلـم لا أستطيع أن أستيقظ منه؟.. لكن لـماذا هذا الحلـم طويل بهذا الشكل؟ إنه ليس حلـما.. وإلا لـماذا لا أستيقظ منه..؟ قطعت الـمرأة التي ظهرت فجأة أمام البناية تداعي

أفكاري.. كانت بصحبة امرأة عجوز.. يبدو أنها أمها.. كانت تضع ما يشبه التاج على رأسها.. لم أستطع التمعن في ملامحها.. أكاد أفهم الآن.. هل أنا في عالم الجن؟ نعم كل شيء يدل على ذلك.. لماذا لم يخطر ببالي هذا من قبل.. إنني في عالم الجن.. وهذه المرأة "عايشة قنديشة" لقد وقعت ضحية لها.. إنها تريد أن تتزوجني وإلا ستصيبني بالأذى.. خوفي الآن أصبح له ما يبرره.. المرأتان تقهقهان بملء فميهما.. توجهت المرأة إلي بالكلام:

- وأخيرا فهمت.. هكذا أريدك.. يجب أن تكون نبيها..

قلت بإصرار

- ولكن أنا لا أؤمن بوجودك.. إنني فقط أحلم.. إنك لست سوى وهم.. ابتعدي عني..

الابتسامة الساخرة أصبحت أكثر إشراقا على شفتيها، قالت:

- إذا كنت في حلم، لماذا لا تستيقظ منه؟ جرب.. لن تستطيع أبدا.

أجلت النظر فيما حولي، تسربت إلى كياني بعض القوة، استجمعت شجاعتي وبصلابة وقوة قلت لها:

- أبدا، لن أخضع لك.. أعرف أنك وهم، ولن تستطيعي إيذائي بشيء.. لن أستجيب لرغبتك.

علامات الغضب اقتحمت، من جديد، ملامحها.. زمجرت بصوت مخيف وفجأة، اندمجت مع المرأة التي ترافقها.. أضحت المرأتان امرأة واحدة.. اتقدت شعلة الغضب في عينيها.. ظهر في رأسها قرنان، برزت أنيابها التي استطالت بشكل مفاجئ.. الأعلام المنتصبة في كل مكان، ارتجفت بقوة، ابنعث من حيث لا أدري صفير قوي.. في تلك الأثناء حركت الرياح ثياب المرأة، فارتفعت قليلا، كشفت لي عن حافرين مخيفين.. حينئذ أخذت تدريجيا أفقد السيطرة على نفسي.. الإحساس بما حولي يتلاشى.. أشعر بنفسي أهوى على الأرض من ارتفاع شاهق.. لا وجود لأي شيء أتعلق به.. العالم ظلمة حالكة.. أفتح عيني تدريجيا.. إنني ملقى في الخلاء.. أين أنا؟.. القمر يطل من بين السحب.. ضوؤه يبعث في نفسي بعض الأمل.. أحاول أن أستجمع قوتي لأنهض.. لا أستيطع.. لقد تعرضت لحادث خطير.. إنني أنزف.. رائحة الدماء النازفة من عضو ما من جسدي تزكم أنفي.. إذن سأموت في الخلاء.. أتذكر دراجتي المرتمية بالقرب مني.. أحس أن شيئا ما

منغرز في أحشائي.. حاولت أن أتحرك.. لا أقوى على ذلك.. الصيد يتردد في ذهني.. "عايشة قنديشة" تحضر بكل قوة.. كان كل ذلك حلما.. الخدر يعود من جديد.. يسحبني نحو بئر سحيق، لا قرار له.. أقاوم.. لا جدوى.. وأخيرا أستسلم.. أجد نفسي، ثانية في عالم مختلف.. أين أنا الآن؟.. سأجن حتما.. الوضع مختلف.. أنا داخل بناية كبرى، تشبه المحكمة.. في المنصة جلس أشخاص، على رؤسهم تيجان.. يرتدون ملابس بألوان مختلفة.. الشخص الذي يتوسط الآخرين يلبس ثوبا بلون أسود، يحيط به شخصان أحدهما بلون أخضر والآخر بلون أحمر.. وجوههم تنعكس عليها ألوان ملابسهم.. وراءهم ينتصب مجسم للطائر، الذي يبدو أنه شعارهم في هذا العالم.. طائر مخيف، وجهه يشبه الحيوان.. أنيابه بارزة بشكل مقزز.. جناحاه متمددان.. أنتبه إلى نفسي، فإذا بي في قفص حديدي، قدماي ويداي مغلولة بسلاسل حديدية.. منكس الرأس خائر القوى.. المرأة التي تريد الزواج مني تحلق في قاعة المحكمة.. افتتح الشخص ذو اللباس الأسود الجلسة قائلا:

- بما أنك ترفض الزواج من هذه المرأة، سوف تعاقب.

فكرت أن كل هذا وهم.. لا يـمكن أن يحدث شيء مما أراه.. إننـي أحلـم فقط.. أخرجتني زمجرة قوية من شرودي.

- ماذا قـلت؟.. لابد أن ترد.. إذا لـم توافق على الزواج سوف تعاقب.

أجبت بصوت يائس:

- ولكن لـماذا أنا وليس غيري؟

رد بابتسامة ساخرة على فمه:

- إنك تسببت لها في إعاقة دائمة.. كانت نائمة في الخلاء، فأصبتها بدراجتك النارية.. أنتـم - أيها البشر- ما أتفهكـم.. أتظنون أنكـم وحدكـم على الأرض؟.. النهار لكـم والليل لنا..

فكرت في كلامه ثم أجبته:

- ولكن لـم أرها.. لـم أقصد إيذاءها..

وبلهجة جامعة قال:

- لا يهمنا ذلك.. يجب أن تكفر عن خطيئتك وتعوضها عن سخارتها، وإلا أخذنا منك حقنا بالقوة..

سألته بلهفة:

- ماذا تقصد؟

أجاب بثقة:

- ابنك.. سنختطفه من أحضان أمه، وهذه اللحظة، إن أبيت الاستجابة لحكمنا.

خائفاً والألم يمزق أحشائي سألته:

- ولكن ما ذنب الطفل؟

رد بصوت مجلجل:

- لا يهمني ذلك.. لابد من قصاص.

لا سبيل للانفلات من هذا الأسر.. صورة الممرض تظهر وتختفي، هي في مكان ما من هذا العالم.. إنها خلفيته التي لا أكاد أراها.. فجأة يتغير المشهد.. مازلت في الأسر، لكن المحكمة تختفي.. أنا في بيت يشبه بيتي.. قصبة الصيد متمددة في البهو.. إنها تتحرك في اتجاهي.. تزحف نحوي تتحول إلى أفعى.. لا أستطيع الفرار.. انفرجت صرخة في أعماقي.. لا فائدة.. الأفعى تحيط بي.. تعصرني.. أكاد أجن من الرعب.. تقابل رأسها مع وجهي.. فتحت فمها المفزع.. يا إلهي ما هذا الذي يحدث؟ أي رعب هذا الذي أعيشه؟ من المستحيل تحمل كل هذا.. إنني أفقد وعيي تدريجيا، قهقهة ترجعني من منتصف الطريق، أنتفض، أستجمع قواي،

أحس بلمس ناعم.. أفتح عيني، فإذا هي امرأة بملامح زوجتي تحضنني.. تأملتها جيدا وأنا أرتجف خوفا.. الملامح تتحول من جديد.. أصيح بأعلى صوتي.

- من أنت؟

ترد علي بصوت فيه كثير من الغنج:

- أما زلت تسألني؟ قلت لك إنني عائشة.

بسرعة قلت:

- عائشة من؟ "عايشة قنديشة" أليس كذلك؟

حين واجهتها بهذا الكلام ابتسمت بخبث، ثم انسلت من أحضاني، تقهقرت إلى الخلف، حلقت من جديد في أجواء البيت.. المرايا تظهر مرة أخرى.. صورة المرأة تنعكس عليها جميعها.. تذكرت حينئذ ابني.. زوجتي. الصيد.. القصبة التي تحولت إلى أفعى.. المقهى.. الممرض.. نعم الممرض.. لماذا تحاصرني صورته.. أحداث من الماضي السحيق تتقافز دون انتظام في ذهني.. الناس الذين أعرفهم يتطايرون حولي.. كلهم يمتلكون أجنحة.. لا يهتمون بوجودي.. كأنهم لا يرونني.. منشغلون إلى أبعد الحدود بالطيران.. إلى أين هم ذاهبون؟.. وأنا من ينقذني من

هذا الأسر؟ ألا يكون هذا حلماً؟.. المرأة تخرجني من شرودي قائلة:

- اِعلم أنه لا سبيل للانفلات مني.. عليك أن تستسلم.. لن يفيدك عنادك في شيء.. لا تضطرني إلى معاملتك بقسوة.. حتى الآن، لازلت آمل أن تتعقل..

تماسكت ثم قلت لها بلهجة مستجدية:

- ألا يمكن أن نتفاهم؟

أجابتني بعنف:

- لا مجال للتفاهم.. أتريد أن ترى ما سببته لي من ألم.. لقد كسّرت رجلي اليسرى، ولن أرضى بغير الزواج منك، وإلا اختطفت ابنك وعقلك.

حاولتُ استعطافها.. غير أنها ودون تردد رفعت ثوبها الأبيض الناصع وكشفت لي عن قامة قبيحة ذات حافر مشقوق في الوسط.. بدت بشعة، وقد تدلت الساق المكسورة. أثار ذلك التقزز في نفسي، حينها أحسست أنني أتبدد تدريجيا.. أختفي.. أمضي في طريق متمدِّد مظلم لا نهاية له..

الفصل الرابع

حين مزقت أولى صيحات الدّيكة رداء السّكون الـمترامي على امتداد القرية، معلنا عن قدوم أول خيوط النور الرفيعة، تقلب الـمعطي في فراشه، يطرد بقايا النوم الجاثـمة على كيانه.. أزاح الغطاء عن وجهه، فأحس، بغريزته أن الوقت قد حان ليغادر غرفته البسيطة، التي تجاور الإسطبل، كي يستعد لإخراج القطيع إلى الحقول.

الـمعطي شاب ضئيل البنية داكن السمرة، هاجر من موطنه الأصلي بنواحي قلعة السراغنة، تنقّل في قرى عدة بحثا عن لقمة العيش، مستعدا للقيام بأي شيء وبأي ثمن.. انتهى به الـمطاف عند الفلاح الـميسور الذي يستأجر الـمعلـم سعد أحد بيوته.. كلفه بالرعي.. والقيام بكل ما يحتاجه البيت الكبير من أشغال، مقابل غرفة قذرة ولقمة عيش ودريهمات يـمنحها له آخر كل عام، عند الحصاد..

تناول المعطي الفطور مستعجلا: كأس شاي وكسرة خبز يابس.. دلف نحو الإسطبل.. ثغاء الأغنام يتعالى، وكأنه يستعجله للذهاب إلى الحقول.. فتح الباب الخشبي الكبير.. لفت ثلاثة كلاب من حوله. لا تتوقف عن الحركة.. نباحها طرد من عينيه بقايا النوم.. خرجت المواشي، الأغنام في المقدمة، تتبعها الأبقار بأجسادها الضخمة.. انتظم الجميع على امتداد المسلك الترابي.. الكلاب لا تمل من الدوران حول القطيع.. المعطي في الخلف، يحمل عصاه، وجلبابه على كفته الأيسر، يصدر بين الفينة والأخرى صفيرا يذكر القطيع بوجوده..

حين بلغت المواشي الطريق الإسفلتي، أسرع المعطي الخطو ليتقدمها.. حين اطمأن إلى خلو الإسفلت من السيارات، هش على مقدمة القطيع لعبوره.. تتابعت المواشي في اتجاه الحقول المترامية الأطراف.. الضياء هجم على الكون فجأة، فطرد إلى غير رجعة آخر جحافل الظلمة.. المعطي يترنم بأغنية حملها معه من موطنه الأصلي.. قرص الشمس يطل بوجهه البرتقالي الكبير من جهة الشرق.. من بعيد تلوح زرقة البحر تعانق بانتشاء زرقة السماء.. النسيم البارد يهب في لطف، يداعب وجه المعطي برقة.. أيقظ

الصبح بأنفاسه المنعشة في وجدانه حنينا دفينا لقريته البعيدة، التي أجبرته لقمة العيش على مغادرتها، فتوالي سنوات الجفاف لم يترك له أية فرصة للإقامة فيها.. صدرت عنه زفرة.. تجاهل كل ذلك وانخرط في مداعبة أنغام جديدة، ردّدها بعشق، فكر في دواخله بأنه على الأقل في هذه القرية ينعم بمكان يضم جسده آخر كل نهار، ويفوز بلقمة يسد بها رمقه.. إنه لا يطمع في أكثر من ذلك.. جالت بغتة بذهنه فكرة الزواج، فطردها.. رأى أنه لا يحق له أن يفكر في ذلك.. ربما يستطيع حين يعود إلى قريته في يوم من الأيام.. نباح الكلاب المفاجئ أخرجه من شروده.. حاول أن يتجاهله، إلا أن النباح ما فتئ يتعالى أكثر حدة.. توجه نحو الكلاب، وهو يتساءل في نفسه عن سبب هيجانها.. لابد من مبرر لسورة النباح التي انخرطت فيها دون سابق إنذار.. تقدم بخطوات مستفسرة.. قطرات الندى جعلت التربة أكثر سوادا.. لا يزال بعضها يلمع على ذوائب النباتات القصيرة المحادية للمسلك الترابي.. النباح لا يتوقف، نباح غريب، أقرب إلى النحيب.. تساءل في أعماقه "ترى ماذا حدث"؟.. أشرف على المكان فأفزعه الجسد المسجى على التراب.. دقات قلبه تضاعفت.. هل يكون

قتيلا ما؟ لاحول ولا قوة إلا بالله" تقدم بوجل.. حين اقترب أكثر تراءت له الدراجة النارية بالقرب من الجسد.. تأكد أن الأمر يتعلق بحادثة.. اطمأن قلبه إلى استنتاجه "الدراجة أعرف صاحبها.. والقصبة، نعم القصبة.. إنه الأستاذ، نعم الأستاذ وليس غيره.. هذه ملابسه عندما يذهب للصيد "عقدت الدهشة لسانه، رمى العصا، وركض في اتجاه القرية.. صراخه لا يتوقف "عتقوا الروح أعباد الله.. عتقوا الروح !".. انبته بعض البدو، الذين يشتغلون بأحد الحقول المجاورة لصوته، فهبوا إليه جميعا فزعين، سأله أحدهم:

- ماذا جرى.. ما بك أ المعطي؟

استجمع أنفاسه وبصوت متقطع قال:

- الأستاذ.. الأستاذ.. مرمي في الخلاء.. ربما يكون قد مات، يجب إنقاذه قبل فوات الأوان.

لم تنتظر فتاة تشتغل في الحقل لتسمع أكثر، ركضت في اتجاه بيت المعلم، فيما مضى المعطي مسرعا في اتجاه مقهى القرية حيث يوجد الهاتف.. أما باقي الرجال والنساء، فهرولوا نحو المعلم.. وبعد قليل لاحت زوجة المعلم قادمة صحبة الفتاة،

وهي تتعثر في ركضها، يبدو من خلال ملابسها المهملة أنها فقدت التركيز على ما حولها.. وصل المعطي إلى المقهى فوجد مشغله يجلس صحبة بعض أعيان القرية حول المنضدة، يرتدي جلبابا نظيفا، يحتسي الشاي بتلذذ.. الجميع منخرطون في سورة من الضحك.. توقف العربي بجانب مشغله، ثم قال بحروف متقطعة:

- "آسي العياشي.. المعلم..مصيبة.. مرمي في الطريق.. بركة من الدماء بجانبه، يمكن أن يكون قد مات".

هب الجميع منتفضين.. توجه العياشي داخل المقهى التي هي في ملكه.. أمسك الهاتف وسط ذهول الحاضرين.. ركب رقم الإسعاف، ثم اتصل بالدرك.. وبعد ذلك تراكض الرجال نحو المعلم.. ولم يمر كثير من الوقت حتى كان أكثر سكان القرية يتحلّقون حول الجسد.. الزوجة تلوح بجانبه.. لا يزال المعلم فاقدا الوعي.. الدماء تجمد أكثرها بجانبه.. في تلك الأثناء وصل الممرض.. دنا من الجسد.. جسّ نبضه، ثم قال بصوت تعمد أن يسمعه الجميع:

- إنه لا يزال حيا، لكن يجب إنقاذه قبل فوات الأوان، لقد فقد كمية كبيرة من الدم.

ما كاد الـممرض يتـم كلامه حتى اخترق إمام الـمسجد جموع الحاضرين يتعثر في جلبابه، تتضح سيـماء الوقار من سحنته.. تقدم نحو جسد الـمعلـم أمسك بيده اليـمنى ووضع يده على الجانب الأيسر من صدره، ثم شرع يتـمتـم ببعض الآيات من القرآن الكريـم..

في تلك الأثناء تقدمت الشابة التي أخبرت زوجة الـمعلـم بالحادثة، تحمل في يدها حبة بصل، ناولتها للـممرض الذي أخرج سكيناً من جيبه، شطر الحبة شطرين متساويين.. قرب نصفها من أنف الـمعلـم، فصدرت عنه أنة خفيفة، توترت لها أعصاب الزوجة، ثم ترددت على شفتيه كلـمات استطاعت أن تـميز منها كلـمة "عايشة" حركت الكلـمة في أعماقها فرحا خفياً.. قالت في نفسها "مسكين.. لـم ينسني حتى في حالته هذه ".. طفر الدمع من عينيها، انتبهت الشابة إلى حالتها ففاهت بكلـمات تحاول تشجيعها وحضها على التـماسك.. لـم يقل أكثر من ذلك.. استجابته لرائحة البصل فترت.. التفت الـممرض إلى الجميع ثم قال بصوت قوي:

- الرجل يحتضر، يجب إنقاذه، لقد تأخرت سيارة الإسعاف.

تساءل أحد الحاضرين باستنكار:

- وأين إسعاف البلدية؟

أجاب آخر، متهكماً:

- كالعادة، أعطابها لا تنتهي.

لحظتها لاحت، من بعيد، سيارة الدرك بلونها الرمادي ومصباحها الأزرق في الأعلى.. تراجع الحاضرون إلى الخلف فاسحين لها المجال.. الغبار كون سحابة تتعلق بعجلتيها الخلفيتين.. ارتكنت السيارة جانب الطريق.. ترجّل دركيان بطريقة استعراضية، توجه أحدهما نحو المصاب، فيما خطا الثاني نحو الحاضرين، شرع ينهرهم، ويأمرهم بلهجة عنيفة، بالانصراف.. تراجع الناس بعض الشيء، لكن ما أن توجه الدركي ليلتحق بزميله، حتى عادوا إلى أماكنهم الأولى..

تقدم صاحب المقهى نحو الدركيين، حياهما بطريقة توحي بعلاقة متينة بهما سأله الدركي:

- تعرف المصاب؟

أجاب بكلمات واثقة:

- إنه معلم بمدرسة القرية، ويسكن عندي أقصد أكري له بيتا.

استفسره ثانية:

- هل يوجد أحد من أقاربه؟

رد:

- نعم هذه المرأة زوجته، وأشار بإصبعه إليها.. نادى الدركي المرأة، دنت منه فسألها:

- هل لديك بطاقته الوطنية.

أجابت المرأة: لا.

ثم سرعان ما استدركت:

- إنها ربما في جيبه.. ولكن يجب إنقاذه أولا.. سيموت الرجل.

نهرها الدركي قائلا:

- هل تريدين أن تعلمينا ما يجب أن نقوم به.. وبلهجة آمرة: حاولي إخراج البطاقة من جيبه.

تقهقرت المرأة في صمت.. الدمع لا يكف عن الانهمار من عينيها.. فتشت جيب سترة زوجها.. أخرجت محفظته الجلدية، استلت منها البطاقة أسرعت نحو الدركي.. تدخل الممرض وكأنه يوجد كلامه للدركي:

- الرجل في حالة خطرة، يجب إنقاذه أولا.

التفت نحوه الدركي وبلهجة عنيفة سأله:

- من أنت؟ ألا تعلم أنه يمنع الاقتراب من المصاب؟

أجاب الممرض بثقة:

- أنا ممرض، وأعرف كيف أتعامل معه، من واجبي إسعاف شخص في حالة خطر.

لم ترق الدركي هذه الإجابة، أحس أن فيها شيئا من التطاول على شخصه، طلب منه إخراج بطاقته.. تردد الممرض ثم أجاب:

- لم أحملها معي.. الخبر أذهلني، فلم أفكر في البطاقة.

حدجه الدركي بنظرة متعالية، ثم أخرج من محفظته السوداء بعض الأوراق وأخذ يسجل بعض المعلومات.. نادى زوجة المعلم والفلاح صاحب المقهى، أسر لهما بصوت خافت:

- لا أخفيكما، هناك مشكلة.. الطريق غير معبدة، فالتأمين لا يشملها.

قاطعته المرأة:

- المهم يجب إنقاذه، أرجوك اتصل بإحدى سيارات الإسعاف.. الرجل سيموت.

وجه الدركي كلامه هذه المرة إلى الفلاح:

- ألم يتصل أحد بعد بسيارة الإسعاف؟

أجابه:

- بلى لقد فعلت، ولكن لم تصل بعد.. ربما وجب إعادة الاتصال.

تدخل حينئذ الممرض مخاطبا الفلاح:

- ألا يمكن أن تحمله في سيارتك.. سيموت حتما قبل وصول سيارة الإسعاف.

التفت الفلاح نحو الدركي مستفسراً:

- ما رأيك؟ هل أنقله في سيارتي إلى المستشفى؟

أجاب الدركي برد حازم:

- القانون يمنع ذلك.. وماذا لو مات في السيارة؟

تبادل الفلاح والزوجة نظرة فيها كثير من الأسف والحسرة.. عادت الزوجة نحو الجسد المطروح على الأرض، رمقته بنظرة حزينة، تطفح بالعجز وضعف الحيلة. الشمس كانت- لحظتها- ترسل أشعة ما فتئت حرارتها تشتد.. اتجه الدركي مرة أخرى نحو المتحلقين.. جلدهم بعينين شرستين، فتقهقر أكثرهم إلى الوراء.

الصوت القادم من بعيد أحيا بعض الأمل في النفوس.. إنها سيارة الإسعاف يسبقها زعيقها الرتيب، تطلّع الجميع نحو مصدر الصوت، فيما ركض الأطفال نحو الإسفلت يحاول كل منهم أن يكون أول من تقع عيناه عليها.. وفجأة لاحت بلونها الأصفر، وأضوائها المتراقصة، انعطفت نحو اليسار، غاصت في الطريق المترب، تعلقت بها الأبصار في لهفة، توقفت قرب الجسد.. وبسرعة خاطفة نزل رجلان يرتديان ملابس الخدمة الطبية يحملان نقالة، ومن مقدمة السيارة نزل رجل، يبدو أنه أعلى رتبة من الباقين، تقدم نحو الدركيين، حياهما ثم انخرط معهما في حديث سري، لا يستطيع أحد الاطلاع عليه..

حمل الرجلان الجسد، ووضعاه على النقالة ثم خفّا به نحو السيارة، سأل أحدهم بصوت مرتفع:

- هل يوجد أحد من أقار به؟

هرولت الزوجة:

- أنا زوجته يا سيدي.

أردف الرجل متسائلا:

- في ماذا يشتغل؟

أجابت المرأة:

- إنه معلم في القرية.

سألها:

- هل لديك بطاقته الوطنية؟

أجابت:

- نعم.. إنها لدى الدركي.

أسرعت المرأة نحو الدركي، طلبت منه البطاقة، ثم توجهت نحو سيارة الإسعاف.. صعدت عبر السلم المثبت خلف السيارة.. وقبل أن تنطلق الإسعاف نادت إحدى فتيات القرية، ناولتها مفتاح البيت ثم قالت لها بلهجة متوسلة:

- اعتني بالطفل رجاء.. إنه نائم.. دفئي الحليب قبل تقدميه له.. سأعتمد عليك.

أجابت الفتاة:

- لا تقلقي على الطفل.. سأهتم به، وكأنك موجودة في البيت.

انغلق باب السيارة، وانطلقت تطوي المسافات، وهي لا تكف عن الزعيق مخلفة وراءها القرية تتخبط في حيرتها، بعد أن

شاع الخبر في كل أرجائها.. المسافة التي تفصل القرية عن مدينة الدار البيضاء، بدت لها طويلة، أطول من أي وقت مضى.. جسد زوجها المتمدد في جوف السيارة.. حبال التنفس المتشابكة، ترتبط بقنينة الأوكسجين.. قناع التنفس على وجهه.. الطريق التي تبدو من خلال الزجاج الخلفي، متمددة، سوداء، كثعبان لا نهاية له.. الخوف الذي يكبس على أنفاسها.. ماذا ستفعل لو مات زوجها؟ استرجعت في تلك اللحظة الحديث الذي دار بينهما ليلة أمس.. إصراره على الذهاب إلى الصيد.. تحذيرها له. إحساسها الغريزي الدفين بأن شيئا ما سيقع.. طفلها الذي تركته لوحده.. هل ستستطيع الفتاة أن ترعاه جيدا؟

أشرفت السيارة على مدينة الدار البيضاء، تباطأت سرعتها بعض الشيء.. توجه أحد الرجلين إليها بالكلام:

- هل ترغبين في نقله إلى مكان محدد؟

أجابت:

- لن أنقله إلى المستشفى العمومي.

أردف الرجل موضحا:

- إذا كانت له تغطية صحية، فمن الأفضل نقله إلى مصحة الضمان الاجتماعي.

أجابت المرأة:

- نعم إنه مشترك في التعاضدية.

حينها قال الرجل:

- حسنا، لكن تذكري أنه عليك دفع ثمن النقل في سيارة الإسعاف.

سألته باندهاش:

- أليست السيارة تابعة للدولة؟

أجاب:

- نعم.. ومع ذلك عليك الدفع.

استدركت المرأة، ولكنني لا أحمل نقودا كافية.

رد عليها:

- في هذه الحالة سنحتفظ ببطاقتك الوطنية إلى أن تدفعي ثمن النقل.

احتارت المرأة في الأمر ثم استدركت:

- أليس هناك من حل آخر؟

أجابها وابتسامة خبيثة ترتجف على فمه:

- طبعا هناك حل أفضل.. فقط لا تطلبي وصلا لما ستدفعينه.

اخترقت السيارة شوارع المدينة.. الطريق مزدحمة بالسيارات من كل الأنواع، زعيقها لا يتوقف.. بعض السيارات يخلي لها الطريق.. وصلت إلى إحدى مصحات الضمان الاجتماعي.. فتح أحد الحراس الباب الحديدي، دخلت ساحة كبيرة، ثم ما فتئت أن انزلقت نحو سرداب.. سرعان ما تحلق الممرضون حولها.. انفتح باب السيارة، أخرج الرجل محمولا على النقال.. توجه أحد الممرضين إلى المرأة بالكلام:

- اذهبي نحو الاستقبالات وسجليه هناك.

خفت المرأة نحو الباب الرئيس، في حالة بائسة تقدمت نحو المرأة التي تعتمر لباسا أبيض، وهناك قدمت لها جميع المعلومات عن زوجها.. بعد الانتهاء من التسجيل، دلفت نحو الطبيب الرئيس، رجته أن يسمح لها برؤية زوجها.. إلا أنه منعها بلهجة لطيفة قائلا:

- لا يـمكن إنه في قاعة الإنعاش.. عندما يتـم إخراجه منها يـمكنك ذلك.

استجابت الـمرأة لكلامه.. سألته إن كان يـمكن أن تنتظر فأجابها بشكل حاسم:

- لا.. من الأفضل أن تعودي إلـى بيتك، وفي الغد تحضرين، وتحملين معك بطاقة انخراطه في التعاضدية.. لا فائدة من وجودك اللحظة.

ترددت الـمرأة في تصديق كلامه، نكصت إلـى الوراء، تذكرت أنها لا تدري ما إذا كانت الفتاة ستهتـم بشكل جيد بالطفل.. اغرورقت عيناها بالدموع، قالت بصوت خافت "يا ربي.. أين كان كل هذا؟.. هل اقترفت ذنبا أستحق عليه كل هذا العقاب؟"

فكرت أنه لابد من إخبار أهلها كي يسندوها في مـحنتها.. أخرجها صوت الـممرضة من شرودها:

- عليك أن تحضري له بعض الـملابس الخاصة، سيحتاج منامة، وبعض الأشياء الخاصة.. من الأفضل أن تذهبي الآن، ولا تنسي إحضار بطاقته التعاضدية.

غادرت المرأة المصحة تاركة خلفها الجسد المنهك.. تقافزت الهواجس إلى وجدانها.. ورغم الألم الذي يعتصر قلبها، تسللت خفية ابتسامة إلى شفتيها، خفرة، تشي بفرح ما، فجرته الكلمات التي همهم بها زوجها وهو فاقد الوعي. كان ينبس باسمها، لم يتفوه بغيره.. مرت بذهنها عندئذ حياتها كشريط سريع.. رأت نفسها وهي تجلس بجانب زوجها، في عرس بهيج، يتوسطان الحفل.. الفرحة- لحظتها- لم تسعها. كادت تنبت لها أجنحة وتحلق في الأجواء. العيون المتعلقة بهما تؤجج النشوة في أعماقها.. عاشت اللحظة بكل افتتان وهي تنوس بين الريبة واليقين.. حلمها يتحقق أخيرا.. عاهدها على أن يظل لها وحدها، لا يمكن أن يفكر في غيرها. لم تكد تستفيق من نشوة الفرح بالزفاف، حتى طالت أحشاءها تغيرات عميقة، شيء ما أخذ ينمو في داخلها، فكانت فرحته بالخبر حين زفته له لا توصف.. العالم كله غدا ملكها، إنهما أسعد زوجين على وجه الأرض.. كل شيء يتطور بشكل جيد، ولولا دودة الصيد التي تنغل في مكان ما من قلبه لما كان هناك ما يعكر صفوهما.. "لا شيء يتحقق على الوجه الأكمل" قالت في أعماقها، لكن لا بأس فلْيصِد كما يشاء.. المهم أن يتجاوز هذه

المحنة.. لا يمكن أن يضيع كل شيء في لحظة واحدة، ليس عدلاً أن يحدث ذلك".. شعور عميق يخبرها أن كل شيء سيمر بخير.. تعلمت دائما أن الحياة لا تستقيم دون صعوبات، لابد من الصبر.. الأمور ستتحسن بعد ذلك.. وصلت المحطة، الاكتظاظ على أشده.. استقلت الحافلة، ذهنها يترنح في شروده.. الاختناق يخيم على الركاب بفعل الحرارة.. انزوت في ركن ما.. الحادث يجثم على صدرها بكل ثقله.. الطريق يشعرها بقسوة الحياة.. استدركت.. أقنعت نفسها بأن تكون قوية، فكل شيء سيمر بسلام.

الفصل الخامس

طريق موحل يتمدد أمامي.. رعود تقصف بعنف.. البرق يلمع بين الفينة والأخرى.. التفت يمينا ويسارا، رياح قوية تكاد تقتلع كل ما حولي.. لا معالم محددة يمكن أن توجهني.. بغتة أجد نفسي في مواجهة نفق طويل، قاومت بكل قوة لكي لا ألجه.. لكن خطواتي كانت تقودني نحوه.. دخلته.. الجدران محايدة بشكل يبعث على القرف، في آخره يلوح نور باهت، لا أدري كيف أحسست أن تنفسي أضحى أكثر سهولة.. عيناي انفتحتا عن آخرهما.. أسرعت الخطى نحو نهاية النفق.. المرأة انبثقت فجأة من حيث لا أدري، قهقهاتها يتردد صداها على امتداد النفق.. تجاهلتها وواصلت ركضي نحو المخرج.. النور المنبعث حفزني على المزيد من المثابرة.. لابد أن أصل.

فجأة وجدت نفسي وجها لوجه مع نور حاد.. أعشى بصري.. قاومته بيدي. تدريجيا أخذت عيناي تعتاد عليه.. فتحتهما بتؤدة، فإذا بي في مواجهة نهر كبير.. مياهه صفحة مسطحة، تنبعث منه نسائم منعشة، أحييت في نفسي الأمل.. مدتني بمزيد من القوة.. في الضفة المقابلة لاحت لي كائنات مختلفة عن تلك التي توجد في الضفة التي أضع عليها قدمي.. جالت بخاطري أفكار متسارعة، تتدفق كجدول ينسكب من قمة عالية نحو الوهاد العطشى.. لا أدري لم فكرت أن وصولي إلى الضفة الأخرى سيكون نهاية الكابوس الذي أعيشه.. الكائنات الأخرى أكثر لطفا.. هيئتها تبعث على الاطمئنان، التفت خلفي فرأيت المرأة التي تطاردني تحلق في الأجواء، وخلفها عدد كبير من تلك الطيور القبيحة، تتجه نحوي.. كان لابد من فعل شيء ما.. إن لحقت بي لن تتركني أبدا.. في تلك الأثناء، كانت صورة امرأة أخرى في الضفة المقابلة تتحدد ملامحها.. إنها صورة زوجتي، تحمل بين يديها طفلا.. الطفل مدني بمزيد من العزم.. تعلق قلبي به جذلا.. عيناي كادتا تغادران محجريهما.. الطفل انفلت ـ فجأة ـ من ذراعي أمه، وطار بجناحيه إلى أعلى.. اتجه نحوي.. وما كاد يلمسني حتى أقفل عائدا..

الضجيج يلعلع خلفي.. تقدمت خطوات إلى الأمام، غصتُ في الماء، فإذا بقدمي تسيران على صفحة الماء.. ما هذا؟ لابد أنه حلم.. مشيت فوق الماء، وعيناي متعلقتان بالطفل.. حين أدركت حقيقة ما أنا عليه، كاد قلبي يتوقف عن الحركة.. المفاجأة شلت تفكيري.. نفس عميق ينعشني.. الإحساس بأنني سأفلت من تلك المرأة التي تترصدني أفرحني إلى أبعد الحدود.. لا يمكن تصور مدى السرور الذي انتابني.. لكن، لماذا أحس أن كل شيء أمامي يتلاشى؟.. لماذا كل شيء يتحول إلى سديم، لا أكاد أرى منه إلا بقايا؟ الضفة الأخرى تختفي.. ضوء من نوع آخر يشع أمامي.. إنني أفتح عيني تدريجيا.. أين أنا؟ من هؤلاء الذين يتحلقون حولي؟.. أجهد ذاكرتي.. الصيد يطن في ذهني من جديد.. أين القمر؟.. لا وجود له.. أين أنا يا إلهي؟.. أتذكر أنني ربما كنت ضحية حلم مزعج.. كابوس مخيف؟.. هل ما أحياه في هذه اللحظة استمرار للحلم.. من هذا الرجل الذي يقف بجانبي؟ أنا عاجز عن الحركة. تصلني أصوات بعيدة كأنها تصدر من جب عميق، لا قرار له.. "إنه يفتح عينيه" ثم صوت آخر "ربما استعاد وعيه"، تقترب مني امرأة ترتدي بذلة بيضاء، تبتسم ثم تقول لي:

- حمدا لله على سلامتك.

مرتبكاً سألتها:

- أين أنا؟

أجابت والابتسامة لا تفارق شفتيها:

- أنت في مصحة.. لقد تعرضت لحادثة.

أجلت النظر حولي.. القاعة نظيفة. السقف يتدلى منه مصابيح أنبوبية، نظرت إلى المرأة بعيون متعبة ثم سألتها:

- أين زوجتي؟

أجابت

- قد تصل في أية لحظة.. أرسلناها لتحضر لك بعض الحاجيات.

استجمعت أنفاسي المنهكة ثم سألتها:

- متى نقلوني إلى هنا؟

وهي ترتب بعض الأغطية حول السرير أجابت:

- لا تتكلم كثيرا.. كنت على وشك أن تفقد حياتك، لا تجهد نفسك بالكلام.

بمشقة نظرت إلى الجهة اليمنى من سريري، فإذا بقضيب حديدي ينتصب بجانبي في أعلاه زجاجة "السيروم" أحسست بثقل مفاجئ في عيني.. قاومته.. لكنني لم أفلح في فتحهما.. النوم يهاجمني دفعة واحدة، استسلمت له.. النفق من جديد ينتصب أمامي، لكنه الآن يتسع بشكل كبير.. أحس الأن أنني أكثر قوة.. نظرت في كل الاتجاهات.. انتبهت إلى أن تغييرا قد طالني.. إنني أمتلك أجنحة، أستطيع الطيران، رفرفت في الأعالي.. رأيت النهر الذي كنت أهم بعبوره متمددا في الأسفل بدا لي تافها وشاحبا.. تجاوزته بخفة.. الطيور القبيحة تلاحقني لكنها لم تعد تقوى على اللحاق بي.. كائنات من نوع جديد تتحلق من حولي، إنها تشبهني.. لها وجوه بشرية وأجنحة.. لا أدري لم أحسست أنها تأتمر بأمري.. ربما الطريقة التي تطير بها أوحت لي بذلك.. إنها جميعها خلفي.. أنا في المقدمة.. نشكل جميعنا سربا رائعا على شكل زاوية أنا رأسها.. لماذا أحس الآن أننا في حالة حرب؟.. أمر واحد شغلني: لابد من النصر.. في الضفة الأخرى انتظمت تلك الكائنات الطائرة.. كانت المرأة المتشحة بالبياض تتقدمها.. اكتسبت الملامح القبيحة نفسها.. منظرها يبعث على التقزز.. لابد أنها

يئست من استجابتي لها.. وهي تستعد للحرب.. جميع تلك الكائنات تحمل حراباً، وبالإضافة إلى أجنحتها لها أياد تشبه المخالب.. المرأة تحمل حربة كبرى.. في أعلاها يوجد شعار.. عبارة عن رأس طائر قبيح المنظر.. تحلق الطيور في اتجاه سور كبير.. يشبه السور البرتغالي في مدينة الجديدة، بل هو عينه.. اصطفت على حافته وكأنها تستعد للهجوم.. راقبتها من بعيد.. بوابة ما، أثارت انتباهي تتوسط السور.. شكلها غريب.. إنها عبارة عن كوة كبرى تتراقص الألوان في عمقها.. الكائنات الغريبة جامدة في مكانها.. وجه شخص ـ ربما أعرفه ـ ينبثق من العدم.. ملامحه تتضح تدريجيا.. إنه يبعث الاطمئنان في قلبي.. ربما يكون قريبا مني جدا.. إنه وجه جدتي، نعم وجهها.. تحمل رداء تمسكه بكلتا يديها.. تتبعته بلهفة.. يبدو أن لا نهاية له. إنه يتصل مباشرة بالسماء حيث يتداخل لونه بلونها، قلت متلهفاً:

- "جدتي".

أجابت بكلمات تختزن كثيرا من الوقار:

- نعم يا ولدي.

وباندهاش سألتها:

- ألـم تـموتي منذ زمن بعيد؟

أجابت بنبرة مطمئنة:

- علـمت أنك في خطر فجئت لنجدتك.

قلت وقد تسرب إلى وجداني بعض الثقة:

- ولكن، يا جدتي، أشعر الآن بالقوة.. سأنتصر على هؤلاء الأشرار.

أردفت بالصوت الحكيـم نفسه:

- ولـم لا تترك كل هذا وتذهب معي؟

استفسرتها بلهفة:

- إلى أين يا جدتي؟.. أنا لا أريد الذهاب إلـى أي مكان.

أجابت بلهفة مستعطفة:

- حيث ستذهب، ستتـمتع بالأمان، وينعدم كل ما يزعجك ويسبب لك الألـم.

قلت لها بصوت كله عزم وقوة:

- ولكن ـ جدتي ـ هؤلاء يساندونني، يجب ألا أتخلى عنهم.

أردفت بلهجة معاتبة:

- لا تكن أحمق، فأنت ضعيف، وهؤلاء ليسوا بشيء.. إنك فقط في حلم.. كابوس خبيث يكبس على أنفاسك، وسأخرجك منه.

قلت لها وأنا أطير في الأجواء:

- انظري ـ جدتي ـ ألا ترين تلك الطيور القبيحة، إنها تتأهب لمهاجمتي.

في تلك الأثناء لاحظت غياب المرأة المتشحة بالبياض من بين الكائنات المجنحة، حينها فقط نظرت شزرا نحو جدتي.. شكوك جدية راودتني حيالها.. وفجأة، أخذت ملامحها تتغير، وقهقة عالية تصدر عنها.. إنها المرأة الخبيثة، اتخذت شكل جدتي..

رفرفت بعيدا ثم قالت تخاطبني:

- لابد أن تستسلم، لا حيلة لك في مقاومتي.

عادت المرأة نحو السور الشاهق.. وحين دنت منه التحقت بها باقي الطيور، لتنتظم جميعا في تحليقات استعراضية مخيفة.. كان علي، لحظتها، أن أظهر قوتي.. انخرطت مع الطيور البشرية التي تحالفني في استعراضات مشابهة.. السور البرتغالي ينهار فجأة. أضحى

ركاما، والكائنات البشعة جثمت بمخالبها على البقايا.. النهر الهادئ يثور فجأة، تتقافز منه أسماك غريبة.. دخان ينبعث من أعماقه، ما فتئ يزداد قوة، يتحول إلى نيران شديدة التأجج، ألسنتها رؤوس لكائنات أشد غرابة تشتكل على هيئات مختلفة.. المرأة وطيورها تفاجئها النيران، ترتعب، تنكص خائفة.. فجأة أجدني أقف في مكان مختلف.. أشرف على امتداد أزرق، لا حدود له.. أمسك بيدي شيئا ما.. إنه القصبة، ولكن لماذا هي مختلفة.. وكأنها جسم متحرك، إنها لا تتوقف عن التمدد.. رفعت بصري نحو الأعلى.. لا أرى للقصبة نهاية.. ثم ما هذا الهدوء الذي يحيط بي.. ولا نأمة واحدة.. بغتة أحس أن القصبة تهوي نحو الأمام.. حاولت الإمساك بها بكل قوة، فلم أفلح في ذلك.. ارتطمت بصفحة الماء الزرقاء.. وأمام انذهالي، انشقت الزرقة أمامي، فتمدد طريق بين طرفيها.. لا أكاد أصدق ما يحدث.. لابد أن كل هذا وهم.. صفعت خدي الأيمن لأتأكد من صحة ما أرى أمامي.. تألمت، لا مجال للشك إذن.. ألقي في روعي أنني لو خضت في هذا الطريق ربما نجوت مما يترصدني.. ولكن ما الذي يترصدني؟.. مم أنا خائف؟.. لماذا هذا الهدوء الذي أشعر به، شيء ما يوحي لي بأنني مهدد؟..

أعود بالذاكرة القهقرى، في لحظة ما واجهت خطرا حقيقيا.. لا أستطيع أن أتذكر بالضبط ما حدث، الأمر يتعلق بامرأة.. نعم امرأة.. تشبه زوجتي "عايشة" طاردتني دون رحمة، تريد أن أكون لها زوجا.. الصورة تتضح بشكل أفضل.. ألـم يكن ذلك حلما؟.. وهذا الطريق الذي يتـمدد أمامي أليس حلـما كذلك؟ متوترا ألتفت في كل الاتجاهات، لا أدري لـم علي أن أقطع هذا الطريق.. أسئلة توجعني.. لا أظفر بأدنى إجابة.. لحظتها بدا لي في الأفق طيور تنزلق في اتجاهي.. تذكرت الطيور الخبيثة التي طاردتني مدة من الزمن.. لا أدري متى؟.. هل كان ذلك في طفولتي.. لا أستطيع أن أحدد بالضبط.. عشت هذه اللحظات العصيبة في وقت ما، حتى إنني كنت عازما على مواجهتها.. امتدت أمامي درجات سلـم.. لا يـمكن تحديد عددها.. خطوت خطوات مترددة.. دلفت في الطريق الـممتدة، مشيت بين الـمياه.. غريب هذا الأمر.. أنا وسط الـمياه دون ان أبتل أو تغمرني.. في آخر الطريق كانت بوابة تنتصب بشموخ.. منظرها يبعث على الاطمئنان.. فكرت أنني لو استطعت الدخول عبرها ربما انتهى كل شيء.. لكن كيف؟.. الطريق طويل، والطيور التي هاجمتني في وقت لا أتذكره، تتحلق

اللحظة فوقي.. المرأة المتشحة بالبياض، التي سمت نفسها "عايشة" تحاصرني من كل الاتجاهات، حيثما نظرت أرى صورتها وابتسامتها الخبيثة..

بعد فترة قصيرة دنت مني وخاطبتني:

- ألا تخاف؟ ستغرق حتما إذا استمريت في الطريق نفسه؟

مرعوبا أخذت أركض وسط صخب تلك الطيور القبيحة.. قلبي متعلق بالبوابة.. لكنني أحسست بتعب مفاجئ ينيخ على كاهلي.. أنا على وشك السقوط.. المرأة لا تكف عن مناداتي.. أشعر أنها لا تستطيع أن تدنو مني أكثر.. يفرحني ذلك.. لكن الإجهاد أصابني.. تسرب بعض القلق إلى نفسي.. لا يمكن أن أستسلم.. كل الوجوه التي أعرفها، انتظمت اللحظة أمامي تدعوني للاستمرار في طريقي، الطيور التي تحلق فوقي، أطلقت نحوي حبالا سوداء.. علقت بي، فأخذت تجذبني نحوها.. أقاوم بكل قوتي.. حركاتي تثقل.. صرخة تتفجر من أعماقي قوية مجلجلة.. البوابة لا تبعد عني سوى خطوات.. أكافح للوصول إليها.. فجأة انبثقت صورة ابني من بين جميع الوجوه، يحلق نحوي، وجهه الملائكي يعيد إلى

نفسي بعض الثقة، يدنو مني كثيرا.. يحضنني، تنبتر الحبال.. الطيور القبيحة تبتعد، المرأة التي تترصدني تتبدد ملامحها تدريجيا.. صوتها غدا بلا تأثير لم يعد يعني لي شيئا.. هرولت نحو البوابة الضخمة، فما كدت ألمسها حتى انفتحت ضوء هادئ يتسرب من أعماقها، يجذبني نحوه بتأثير قوي.. وبخطوات جذلى دلفت نحو الداخل.. كل شيء متغير.. جو من الأمان يحيط بكل شيء.. أحس بلمسة لطيفة على وجهي أقاوم تعبي.. أفتح عيني، فإذا بي في مكان مختلف.. كثير من الناس يحيطون بي، ميزت بعضهم.. الجمركي.. الممرض.. أناس لا أعرفهم.. بالقرب مني زوجتي، أجيل نظري في الغرفة. أشعر أنني امتلكت مزيدا من القوة.. لا أنبس بكلمة.. بلهجة مطمئنة يخاطبني الجمركي:

- الحمد لله على سلامتك.

يضيف الممرض بنبرة المتيقن:

- إنك الآن أفضل.

أحس أن العرق ينضح من كل جسدي.. أرد على كلماتهما بابتسامة ما فتئت تتجدر في أعماقي.. أستطيع اللحظة، أن أتبين كل ما حولي.. دنت مني زوجتي.. وبكلمات مشجعة قالت:

- الطبيب يقول إنك تجاوزت حالة الخطر، ستغادر المستشفى غدا.

ثم أردفت وكأنها تريد أن تكافئ شخصا ما أشارت له بيده:

- عليك أن تشكر، المعطي، هو الذي أنقذ حياتك.

حينما تقدم نحوي المعطي وهو يردد ببشاشة:

- الحمد لله على سلامتك أستاذ، أنا فقط كنت سببا.. الأعمار بيد الله.

ابتسمت له تعبيرا عن امتناني، ولو أنني لا أدري كيف أنقذني..

تدخل الجمركي بلهجة متهكمة:

- هل أعجبتك الإقامة؟.. أوكل أمرك لله، وقم.. لقد اشتقنا إليك كثيرا..

الفصل السادس

صباح الأحد، في القرية يختلف عن صباحات باقي الأيام.. الحركة دائبة والأطفال يتراكضون في كل مكان.. سيارات من جميع الأنواع والألوان تمر في الطريق الرئيس، بعضها يقتحم رحاب القرية بحثا عن لحظات هدوء مفتقدة.. الشمس تتسلل أشعتها في لطف كعادة شمس فصل الربيع، لكن ما تلبث أن تحتد حرارتها تدريجيا.. بعض البدو على صهوات دوابهم يمضون في نشاط لقضاء بعض مآربهم.. قوائم الدواب تثير بعض الغبار الذي سرعان ما يعود إلى الأرض ليلتحم معها في عناق حميم.. المقهى يرتخي بغنج تحت أشعة الشمس، تحيط به من جهاته الثلاث الحقول الخضراء المترامية الأطراف، ويشرف من الناحية الشرقية على الإسفلت المتمدد كشريط لا نهائي..

في المكان المعتاد تحلق حول منضدة الممرض والجمركي ويحي الموظف بالبلدية.. يرتدي الممرض- كعادته أيام الآحاد-

جلبابا أبيض، ويعتمر طاقية يحاكي لونها لون الجلباب.. أما الجمركي فقد ارتدى بذلة أنيقة تميزها ربطة العنق بلونها اللامع، وأمامه علبة السجائر الحمراء.. فوقها قداحة مذهبة.. وفي جانبه من الناحية اليسرى يحيى ـ الموظف بالبلدية ـ يرتدي قميصا متعدد الألوان وقد أهمل ـ عن عمد ـ خصلات شعره، فجعلته يبدو أكثر شبابا من صديقيه.. تتوسط الرجال الثلاث صينية، يغازلها الممرض بأصابعه الطويلة، تعمد يده اليمنى إلى "البراد" فيفرغ الشاي، لتمتلئ الكؤوس محافظا أشد المحافظة على الشرشرة التي يصدرها انسكاب الشاي.. يوزع الكؤوس على رفيقيه في جو احتفالي مرددا:

- خذ.. بالصحة !

فيرد كل من تسلم كأسه:

- "الله يعطيك الصحة"

في تلك الأثناء، يتعمد الجمركي طرح موضوع المعلم:

- آسي أحمد كيف حال المعلم سعد؟

فيجيب الممرض:

- لقد غادر المستشفى منذ يومين، وحالته في تحسن مستمر.

يتدخل يحيى معلقا:

- لولا الألطاف، لهلك في الحادث.

يعقب الممرض على كلامه:

- لو لم أصر على إحضار الإسعاف لكان قد هلك.

وقبل أن يتم كلامه.. انتبه إلى صوت الجمركي الذي قاطعه.

- انظروا إنه قادم..

تهللت وجوه الجميع وهم يرنون إلى الرجل القادم من بعيد، يتكئ على عكازته، ويتقدم ببطء.. فنهض الجمركي يستقبله، ثم ما لبث أن هرول نحوه، وكأنه يود أن يسنده حتى يخفف عليه بعض الجهد..

كانت عيون المرتادين للمقهى قد تعلقت بالمعلم، الذي أخذ يرد على كلماتهم المواسية، بابتسامة خفرة وعينين متعبتين، أحضر يحيى كرسيا بسرعة فاقتعده سعد، ووضع عكازته بجانبه.. تقدم بعض البدو لتحيته.. وهم يرددون:

- "الحمد لله على سلامتك".

فيرد بصوت واهن، لا تزال علامات التعب تفوح من ترانيـمه:

- "شكرا.. لا أراكـم الله مكروها".

في وجه الـمعلـم سعد دب بعض الشحوب، فبدا وكأنه تقدم به العمر لسنوات ويـمكن للـمرء أن يلاحظ بعض السواد وقد أحاط بعينيه الـمنهكتين رغم الابتسامة الـمعلقة على شفتيه.. يشعر من تـملى في سحنته أن تغييرا ما قد طاله.. نظراته لا تكف عن الشرود.. مما يجعل الـمرء يقدر أن التجربة التي مر بها كانت صعبة، ولا تزال آثارها جاثمة على صدره.

أسرع النادل نحو الـمعلـم، عانقه، ثم هنأه: على سلامتك، رد عليه بابتسامة واسعة، تدخل الـممرض طالبا من النادل أن يحضر له كأسا فارغا، فلـم يتردد في الإسراع لإحضاره.. ثم توجه بكلامه إلـى الـمعلـم سعد:

- يبدو أنك تجاوزت مرحلة الخطر، وأنت في تحسن مستـمر.

رد عليه بصوته الواهن:

- الحمد لله، رغم أنني لازلت أشعر ببعض الإنهاك، إلا أن الأمور تتحسن.

في تلك الأثناء كانت أصوات إيقاعية تدنو بإصرار، لتملأ الأجواء بصخبها.. تطلع الجميع نحو مصدر الصوت، فإذا بجماعة من النساء، يزحفن نحو المقهى، يحملن بعض الآلات الموسيقية الشعبية "تعارج" ودفوف.. يتقدمهن رجل يقود عجلا لونه يميل إلى الحمرة، ويتخلله بعض السواد.. الإيقاعات الموسيقية تفرض نفسها على الحاضرين، الأطفال في مؤخرة الموكب وقد أسرتهم الموسيقى، ووسط النساء كانت بعض الفتيات يتجاوبن مع الإيقاعات بحركات تهتز خلالها أجسادهن النافرة.. الجميع يتلقف المشهد بنوع من المشاركة الوجدانية الخفية، علق الممرض:

- موسم الأعراس على الأبواب.

مر الموكب بصخبه الذي ما فتئ أن تواهى، ليعود الرجال إلى أجوائهم الخاصة، ولخلق نوع من الحميمية، يتدخل الجمركي موجها كلامه إلى المعلم:

- كيف وقع الحادث. هل تذكر شيئا مما حدث؟

تململ سعد في مكانه، امتدت يده نحو علبة السجائر فعلق الممرض على سلوكه بلهجة معاتبة:

- التدخين ليس في مصلحتك، خاصة هذه الأيام.

رد على احتجاجه بابتسامة، ثم مد يده إلى القداحة، أشعل السيجارة.. عب الدخان، فصدرت عنه كحة خفيفة حاول إخفاءها.. ثم شرد وكأنه يتذكر أحداثا بعيدة:

- الأحداث لا أتذكرها بشكل واضح.. بعد أن غادرت المقهى ذلك المساء، توجهت للصيد كما أخبرتكم.. وبينما أنا في الطريق نحو الشاطئ، هاجمتني بعض الكلاب، فلم أشعر بعد ذلك إلا وأنا في المستشفى.. الأحداث وقعت بشكل متسارع.. لا أستطيع ترتيبها في ذهني بشكل منظم..

لم يدع الممرض الفرصة تمر دون أن يتدخل:

- ألا تذكر تحذيري لك.. ألم أقل لك إن الأمر فيه كثير من المخاطرة.. وشخصيا لا أظن تلك الكلاب التي فاجأتك إلا "عايشة قنديشة" وأبناءها.. أزعجتهم بدراجتك النارية فهاجموك.

جال سعد بعينه من حوله، وكأنه أحس ببعض الضيق من كلام الممرض، فالتزم الصمت فيما بدا الشرود على سحنته.. فتدخل الجمركي منبها له:

- أين شردت.. هل أصبحت تصدق كلامه؟

تدارك سعد الموقف ثم رد:

- لا فقط.. رجعت بي الذاكرة إلى الـمحنة التي عشتها.

تدخل يحيى مثنيا على كلام الـممرض:

- لو طاوعتني، لتركتك من هذا الصيد، وخاصة ليلا.. حتى ولو لـم يؤمن الإنسان بما يقوله أحمد، فالواجب الاحتياط.. الأمر لا يخلو من مغامرة غير مضمونة العواقب.

لاذ سعد من جديد، بحصن الصمت، وعلامات القلق بادية على ملامحه.. في تلك الأثناء تقدم العربي في جو احتفالي نحو الـمعلـم سعد، الذي قام وعانقه ثم طلب من يحيى أن يحضر له كرسيا.. جلس بجانبه.. وبعد أن اعتدل في جلسته طلب من الـممرض أن يفرغ له كأس شاي.. تقبله بامتنان ثم سأله:

- كيف عثرت علي ذلك الصباح؟

فرد وهو يفرج عن زفرة عميق:

- لقد كتب الله لك عمرا جديدا، حين رأيتك مرميا في الطريق ظننتك ميتا.. ولولا الحاج ـ قاصدا مشغلـه ـ لـما أمكن إنقاذك اتصل هاتفيا بالإسعاف وبالدرك.. ثم أضاف بنوع من البهجة:

- الهاتف نعمة من نعم الله..

نظر الرجال إلى المعطي نظرات ملؤها الرضا عما قام به من عمل في سبيل إنقاذ حياة صديقهم.. انتشى الرجل بنظرات الإعجاب فانصرف والابتسامة معلقة على شفتيه.. في تلك الأثناء انعطفت حافلة من الإسفلت، متوجهة صوب المقهى.. لونها أصفر، وفي مقدمتها تبتت لوحة تشير بخط أحمر بارز إلى نقطة انطلاقها، ووجهتها "الجديدة ـ الدار البيضاء".. أثار توقفها بعض الغبار سرعان ما تبدد، انفتحت أبوابها، فاندلق منها سيل بشري.. ركاب بأزياء مختلفة، أغلبهم يرتدي ملابس بدوية، جلاليب، وسترات محلية.. غزا المسافرون المقهى تحت عيون الفضول التي تتبعتهم بإصرار لا يلين.. استطاعت الحافلة بركابها أن تجذب انتباه المعلم سعد وأصدقائه.. تدخل الممرض معلقا:

- البدو غزوا الدار البيضاء.

عمدت يد الجمركي إلى علبة السجائر، أخرج واحدة، ثم تناول بطريقته الاستعراضية القداحة.. أشعل سيجارته، مص الدخان بعمق، ثم قال موجها الخطاب إلى الجميع.

- الجفاف، طرد الناس من بيوتهم.. اللهم تلطف بنا.

وقبل أن يتـم الجمركي كلامه تحفزت كل حواس الـمعلـم سعد فجأة، حين تعلقت عيناه بالباب الخلفي للحافلة، وقد خرجت منه امرأة، تلتحف رداء أبيض، لا يكاد يظهر منها إلا عيناها، وما إن لـمست الأرض، حتى تطلع إليها بفضول أكبر.. خفقات قلبه تضاعفت بشكل كبير.. دنت الـمرأة من منضدة الـمعلم سعد وأصدقائه، وهي في طريقها للولوج إلى الـمقهى.. لـم يستطع أن ينتزع نفسه من سطوة حضورها الـمثير.. تداعت في أعماقه مشاهد حاول جاهدا أن يتجاهلها، لكنها اللحظة تفرض نفسها عليه بكل قوة.. رعشة ما اكتسحته، فبدا ذلك على ملامحه.. تـمالك نفسه بحزم، ثم التفت إلى الـممرض، وبصوت واهن سأله:

- هل لاحظت الـمراة؟

رد الـممرض مستفسرا:

- أي امرأة تقصد؟ النساء كثيرات.

اكتسح صوته بعض التشنج وهو يرد:

- أقصد الـملتحفة بالرداء الأبيض.

أجاب الـممرض:

- لـم أنتبه إليها.. ماذا بها؟

رد المعلم سعد:

- لقد رمقتني بنظرة غريبة.

حينها تدخل الجمركي مازحا:

- ربما حن قلبها عليك.

قاطع سعد كلام صديقه:

- أنا أتحدث بجد، نظرة المرأة كانت غريبة حقا.

ارتفع حينئذ زعيق الحافلة تستعجل المسافرين لاستئناف السفر، فاستجاب لها الركاب بعجلة، فيما تعلقت عينا المعلم سعد بهم وهم يغادرون المقهى.. ركب المسافرون الحافلة، التي زمجرت بصوا كريه، وهي تستعد للغوص ثانية في الاسفلت..

حينذاك سأل الممرض المعلم سعد:

- أين المرأة التي تحدثت عنها؟

أجاب الرجل والحيرة تترنح على ملامحه:

- لاأدري.. أقسم أنني رأيتها بعيني هاتين، وهي تنزل من الحافلة وتدخل المقهى.

خيم صمت ثقيل على الأصدقاء.. أحس المعلم سعد ببعض الحرج.. تبادل باقي الأصدقاء النظرات فيما بينهم.. تململ

سعد في مكانه.. تناول عكازته.. انتصب واقفا بعد لأي، ثم ودع أصدقاءه، ومشى مغادرا المقهى.. فيما شيعه أصدقاؤه بأعين حيرى، وهو يبتعد بخطوات بطيئة، يقتلع قدميه من الأرض اقتلاعا، مستندا على عكازته التي أضحت جزءا من كيانه.

سيرة ذاتية:

- **مصطفى لغتيري**

كاتب مغربي من مواليد 1965 بالدارالبيضاء

عضو الـمكتب التنفيذي لاتحاد كتاب الـمغرب سابقا.

الجوائز:

- جائزة النعمان من لبنان في القصة القصيرة.

- جائزة ثقافة بلا حدود من سوريا في القصة القصيرة جدا.

- جائزة دار الحرف من الـمغرب في الرواية.

الإصدرات:

1 - **هواجس امرأة** - مجموعة قصصية - منشورات وزارة الثقافة – 2001.

2 - **شيء من الوجل** - مجموعة قصصية - دار القرويين 2004

3 - **مظلة في قبر** - قصص قصيرة جدا- منشورات القلم الـمغربي 2006.

4 – "**رجال وكلاب** -" رواية - منشورات إفريقيا الشرق 2007.

5 - **تسونامي** - قصص قصيرة جدا - منشورات أجراس – 2008.

6 - **عائشة القديسة** - رواية - دار النايا - سوريا 2008.

7 - **ليلة إفريقية** - رواية - أفرقيا الشرق - 2010.

8 - **رقصة العنكبوت** - رواية - دار النايا - سوريا 2011.

9 - **ابن السماء** - رواية - دار النايا - سوريا 2012.

10 - **على ضفاف البحيرة** - رواية – الطبعة الأولى دارالنايا - سوريا 2012. الطبعة الثانية منشورات غاليري الأدب 2015.

11 – "**أسلاك شائكة**" (رواية) دارالوطن المغرب 2012 ودارالنايا سوريا 2013.

12 - **تراتيل أمازيغية** - رواية - دارالنايا - سوريا 2013.

13 - **زخات حارقة** - قصص قصيرة جدا- دار النايا سوريا 2013.

14 – "**امرأة تخشى الحب**" (رواية) دارالنايا، سوريا 2013.

15 - **ربيع تونس رحلة الإنسان والأدب** (رحلة) دارالنايا سوريا 2013.

16- **تأملات في رحلة الأدب** - مقالات أدبية - دار الوطن- المغرب 2013.

17- **حب وبرتقال،** سيرة روائية، دار النايا سوريا، 2014.

18- **حسناء إيمزورن** - رواية- دارالنايا سوريا 2014.

19- **سحر المساء**- قصص- دار النايا، سوريا 2014.

20- **الأدب في خدمة التربية** – مقالات- دار الوطن 2014.

21- **الأطلسي التائه** – رواية دار الآداب بيروت 2015.

22- **زنبقة المحيط** - رواية بوليسية – دار الأمان الرباط 2015.

يركز لغتيري في هذه الرواية على بناء منظورين سرديين مختلفين الأول قائم على ضمير الغائب بتوظيفه لسارد يحكي وقائع الأحداث والثاني قائم على ضمير المتكلم عندما يدخل البطل (سعد) في غيبوبة.

و"عائشة القديسة" أو كما يصطلح عليها المغاربة "عايشة قنديشة." يقول بعض المؤرخين إنها في الأصل امرأة حقيقية كانت تقاوم الاستعمار البرتغالي على الشواطئ المغربية الأطلسية في القرن السادس عشر الميلادي وكانت امرأة فاتنة تتدثر بلباس أبيض مغربي تقليدي مستعملة جمالها كسلاح للإيقاع بالبرتغاليين لتغتالهم بعد ذلك.

لكن عائشة التي كانت رمزاً في تلك الفترة لمقاومة الاحتلال تحولت عبر العصور إلى شبح مخيف يلاحق أطياف الرجال والنساء على حد سواء لتتحول من امرأة تاريخية مقاومة إلى "جنية" تتربص بالبشر، ومن ثم إلى أسطورة توارثتها أجيال من المغاربة.

عن وكالة رويترز للأنباء

40 درهما